

الملك لير

وبناته

الثلاث

محمد عطية

أشعار: مصطفى هلال

قصة الملك لير وبناته الثلاث

محمد عطية

أشعار: مصطفى هلال

تقسيم المملكة

ججود الأبناء

مؤامرات الأمراء

طرد الملك

العاصفة

الجنون

الوشاية

محاكمة البنات

عقاب الوفاء

المجنون يقود الأعمى

خيانة زوجية

تجهيزات الحرب

إخلاص الابن

إخلاص البنت

أنيم بين عشيقتين

الهزيمة في المعركة

صراع الأختين

الملك يقاوم حتى النهاية

مقدمة

قصة الملك لير وبناته الثلاث من القصص الخالدة للكاتب المسرحي الإنجليزي وليام شكسبير والتي يبرز فيها الصراع بين الأجيال. يبدأ الصراع عندما يتخلى الأب عن الثروة والسلطة ويترك نفسه تحت وصاية أبنائه. يتضح في هذه القصة التباين بين ضعف وشيخوخة واستسلام كبار السن في مقابل الطموح الجامع والأنانية المفرطة للشباب. وفي ظل كل هذا القدر من الجحود ونكران الجميل، هناك دائماً أشخاص نبلاء مخلصون يضحون بحياتهم وبكل ما يملكون من أجل آبائهم.

تقسيم المملكة

اجتمع رجال البلاط في القاعة الكبرى للقصر الملكي في بريطانيا. وكان من بين الحضور الإيرل جلوستر والإيرل كينت وكانا من أقرب النبلاء المقربين من الملك لير حيث أنهما كانا محل ثقته وتقديره، وكان مع جلوستر ابنه إدموند وإدجار، كان إدموند ابناً غير شرعي، لكن جلوستر كان لا يفرق في الحب أو المعاملة بينه وبين ابنه الشرعي.

كان الجميع يعلمون أن الملك جمعهم لأنه على وشك أن يعلن قراراً مهماً. نفخ العازفون في الأبواق إعلاناً عن وصول الملك فوقف الجميع في أماكنهم ودخل الملك يتبعه بناته جونريل مع زوجها الدوق ألباني، وريجان مع زوجها الدوق كورنوال، ثم كورديليا أصغر البنات، ثم الحاشية.

كان الملك لير عجوزاً وضعيفاً وقد جاوز عمره الثمانين سنة. سار في الموكب بخطوات بطيئة مرتجفة ومر برجال البلاط لتحيتهم ثم توجه إلى العرش وجلس. أخذت بناته وأزواجهن أماكنهم حوله. ولم تكن الصغرى كورديليا قد تزوجت بعد

ولكن تقدم لخطبتها كلا من دوق برجندي وملك فرنسا وقد تم استضافتهما في قاعة مجاورة.

قال لير: "لابد أنكم تتحرقون شوقا لمعرفة الهدف من هذا الاجتماع." ثم طلب من أحد الخدم أن يحضر الخريطة.

لير: "ليعلم الجميع أننا قسمنا مملكتنا إلى ثلاثة أقسام ونحن هنا نعلن نيتنا التخلص من جميع هموم ومسؤوليات السلطة بسبب تقدمنا في السن وأن نمح الفرصة لمن أصغر سنا وأكثر نشاطا، بينما نحن نرحف دون أعباء نحو القبر. وبهذا نجنب بناتنا وأزواجهن أي صراع أو شقاق حول التركة في المستقبل."

ثم أدار الملك لير رأسه إلى حيث تجلس بناته وقال: "والآن يا بناتي الحبيبات - بما أننا سنتخلى عن عرشنا وأرضنا ومسؤولياتنا لكن - أود أن أعرف أيا منكن تحبني أكثر؟ حتى نكافئ حبها ومودتها بالمقدار المناسب. جونريل، ابنتنا الكبرى، زوجة الدوق أولباني، تكلمي أولا."

وقفت جونريل وذهبت إلى والدها وقبلت يده، ثم قالت. "أبي وسيدي ومولاي، إني أحبك أكثر مما يمكن أن تعبر عنه الكلمات. أنت عندي أغلى من السمع والبصر وأعز من الكرامة والخلود والحرية. أنت أحب إلي من كل كنوز الدنيا ومن كل ما هو نادر وقيم. أنت أغلى من الحياة نفسها، بكل ما فيها من نعمة وصحة وجمال ومتعة. حبي لك أغلى وأسمى من حب أي طفل لأبيه. أحبك حبا تعجز عنه النفوس ولا توفي بحقه الحروف. حبا أبعد من كل الحدود وأقوى من كل السدود."

فرح لير بكلام ابنته وابتسم لحسن منطقتها، فأمسك بالخريطة ووضعها على الطاولة وقال وهو يشير بيده: "كل هذه الأراضي، على طول هذه الحدود من هذا الخط إلى ذلك الخط هي لك، بكل غاباتها الظليلة وحقولها الخصبة وكل أنهارها العذبة ومروجها الواسعة. نجعلك سيدة عليها أنت وأحفادك إلى الأبد."

ابتسمت جونيل وقبلت يد أبيها ثم عادت إلى مقعدها.

توجه لير بنظره إلى ابنته الثانية وقال: "وماذا تقول ابنتنا العزيزة ريجان، زوجة دوق كورنوال؟"

وقفت ريجان. ذهبت هي أيضاً إلى والدها وقبلت يده ثم قالت: "أنا مصنوعة من نفس المعدن الذي صنعت منه أختي فأرجو أن تقدرني بقدرها. إن في قلبي نفس مشاعر الحب التي عبرت عنها. ومع ذلك، أجد أنها لم تعبر بما يكفي عن كل ما يجول في خاطري، فإنني لا أجد اللذة في كل ما تقدمه الحواس من البصر أو السمع أو اللمس أو الشم أو التذوق إلا في قربك ولا أشعر بالسعادة الحقيقية إلا في حبك يا مولاي."

ازداد فرح لير بكلام ريجان فأشار إلى الخريطة وقال: "لك وإلى الأبد، هذا الثالث الممتد من مملكتنا الجميلة، ليس أقل حجماً ولا قيمة ولا قدراً من ذلك الممنوح لجونيريل."

نظر إلى لير في عيني كورديليا وابتسم وقال: "الآن، يا بهجة قلبنا، يا آخر العنقود، يا من تتنافس في حبه مزارع عنب فرنسا وحليب بورغوندي. ماذا يمكنك أن تقول لي لنا لتأخذي ثلثاً أوفر حظاً وأطيب قدراً من نصيب أخواتك؟ تكلمي."

كانت كورديليا مصابة بالذهول من المبالغات الجسيمة والكلام المنمق الذي تحدثت به أخواتها، فالحب أعمق من أن يعبر عنه اللسان، وأسمى من أن يكون وسيلة من أجل الحصول على المال.

وقفت كورديليا، وكانت كل العيون عليها، ثم قالت: "لا شيء يا مولاي".

حذق لير في وجهها في حيرة واندھاش ثم سأل: "لا شيء؟"

ردت كورديليا: "لا شيء."

اتسعت عيون لير، وارتفع صوته قليلاً حيث كان يحاول السيطرة على نفسه، وقال "لا شيء يقابله لا شيء. تكلمي مرة أخرى. خذي فرصتك"

كورديليا: "أنا بائسة، لا يمكنني التعبير بالكلمات عما يدور في قلبي ولكني أحب جلالتك حسب ما يحتمه واجبي، حب البنت لأبيها. لا أكثر ولا أقل."

بدأ غضب لير يتزايد وأشار إلى جونريل وريجان أن تساعداه ليقف على قدميه. توجه إلى كورديليا وحذق في عينيها وقال "ماذا ، ماذا يا كورديليا؟ أصلي حديثك قليلاً وإلا أفسدت حظك بيديك."

كورديليا: "مولاي العزيز، لقد أنجبتني وربيتني وأحببتني. وكل ذلك يقتضي أن أطيعك وأحبك وأكرمك. ولكن إذا أحببتك حبا حصرى، حبا لانهائيا كما تزعم أخواتي، فماذا يتبقى لزوجي حين أتزوج، فإن ذلك الرجل الذي يأخذ يدي سيمتلك نصف حبي ونصف رعايتي ووقتي وواجباتي."

لير: "هل تقولين هذا من قلبك؟"

كورديليا: "نعم يا سيدي العزيز."

لير: "أنت صغيرة السن وقاسية القلب؟"

كورديليا: "صغيرة السن يا سيدي وصادقة اللسان."

احتد لير واشتات غضبا وقال: "فليكن. ليكن صدقك صداقك. أقسم بأشعة الشمس المقدسة، بأسرار الليل وآلهة السحر، أقسم بالكواكب الدوارة والأفلاك السيارة التي تتحكم في حياتنا وموتنا، أنني أنزع حبي وأبوتي لك. أنت غريبة عن دمي وعن قلبي الآن إلى الأبد. إن البرابرة الذين يأكلون لحوم آباءهم وأبناءهم عندما يموتون هم أفضل عندي منك، يا من كنت يوما ابنتي".

همس كينت في أذن جلوستر: "هل ترى عيبا فيما قالتة كورديليا؟"

جلوستر: "لا، لا أرى عيبا فيما قالتة، ولكن الملك الليلة لا يحب أن يسمع سوى ما يحب، وليس من الحكمة أن يعارضه أحد. إن الغضب يعمي البصر ويصم الأذن ويحجب العقل".

كينت: "ولكن ليس من حسن المشورة أن نترك النصيحة لمن ندين لك بالولاء خوفا من العقاب. سأتكلم أنا وليكن ما يكون".

وقف كينت وقال: "هل تسمح لي بالحديث يا مولاي الملك".

كانت عيون لير تكاد تحترق من الغضب فصرخ فيه وقال: "اصمت يا كنت! لا تقف بين التنين وغضبه! لقد كانت أحب الناس إلى قلبي وكنت أنوي أن أقضي بقية عمري في رعايتها".

ثم توجه إلى كورديليا وقال: "اغربي عن وجهي! لن يشعر قلبي بالسكينة في القبر بعد أن انسلخ منه الحب من أقرب الناس إليه".

أشار الملك إلى جزء كورديليا على الخريطة ثم قال لابنتيه الأخرتين: "اقسما هذا الثلث بينكما. دعوا الكبرياء الذي تسميه صراحة يجد لها زوجا. والآن أخول كل سلطتي وسلطاني وامتيازاتي إليكما. ولكن أحتفظ باللقب كملك وما يتبع ذلك من

مكانة واحترام كما أحتفظ بمائة فارس في خدمتي وسوف أعيش مع كل واحدة منكما شهرا بالتناوب. ولتأكيد ذلك، خذا هذا التاج واقسماه بينكما."

تقدم كينت مرة أخرى وقال: "أيها الملك، مولاي العزيز، يا من أحبه كأبي، وأخدمه كسيدي، وأدعو له في صلواتي."

قاطع لير وقال: "نفذ السهم عن القوس يا كينت، فلا تقف في طريقه".

قال كينت: "لنفذ السهم وليخترق قلب كينت. كيف يمكن لكينت أن يكون مهذبا عندما يتصرف الملك بحمق وطيش. كيف يمكن لكينت أن يصمت عندما تنهار السلطة من أجل الإطراء والمديح؟ كيف يمكن لكينت أن يبحث عن اللياقة واللباقة عندما ينحرف الملك عن الصواب. احتفظ بمملكتك يا لير وأعد التفكير في الأمور بعقلانية. أراهن بحياتي أن ابنتك الصغرى لا تقل في حبها عن أولئك الذين ملأوا القاعة بعبارات فارغة."

بدأ تنفس لير يضطرب بشكل مثير للقلق حيث بلغ الغضب منه ذروته فقال: "كينت! لم أطلب منك المشورة. حافظ على حياتك!"

كينت: "إن حياتي لم تكن سوى بيدقا صغيرا أستخدمه ضد أعدائك، ولا أخشى أن أخسر حياتي من أجل سلامتك."

لير: "ابتعد عن ناظري!"

كينت: "أحسن النظر يا لير، ودعني أكون، كما كنت دائماً، مستشارك الأمين وعينك الحارسة."

كان الملك العجوز على وشك الانفجار، فصاح: "قسما بعطارد وأبولو"

قاطعه كينت وقال: "قسما بعطارد وأبولو أنك تقسم بآلهتك عبثاً".

انفجر الملك وقال: "آه يا مجرم! يا خسيس! يا وغدا!" واستل سيفه وتوجه نحو كينت.

وقف كينت في مكانه ورفع يديه مستسلماً وقال: "اقتلني يا لير، اقتل خادمك المطيع وحارسك الأمين، ولكن ما دام في جسدي قلبي نبض فلن أسكت وأنا أراك تسير في الطريق الخطأ."

لير: "اسمعي أيها الخائن، بما أنك حاولت أن تؤثر علينا لكي نسترجع هبتنا ونعود في قرارنا، وهو ما لم نفعله من قبل ولن نفعله ما حيينا، فإن عقوبتك هي نفيك خارج البلاد. إنا نمنحك خمسة أيام تجمع فيها ما تحتاج من زاد ومتاع وفي اليوم السادس عليك أن ترحل بوجهك الكريه عن مملكتنا. وإذا وجدناك في اليوم العاشر فيسكون فيه موتك. أغرب عن وجهي! وأقسم بالمريخ والمشتري أنني لن أرجع عن هذا الحكم أبداً!

انحنى كينت وودع الملك ورجال البلاط ثم غادر بينما كان الجميع واقفاً في ذهول وعدم تصديق لما يحدث.

عاد الملك إلى كرسيه وطلب من جلوستر إحضار ملك فرنسا ودوق بورجوندي من القاعة المجاورة، وعندما دخلا توجه إليهما الملك قائلاً: "أيها النبيلين الكريمين، أعلم أنكما تقدمتما لطب ابنتنا الصغرى وأنكما تنتظران ردنا. ولكن قبل أن تأخذوا ردنا يجب أن تعلمنا أننا كنا ننوي منحها ثلث مملكتنا عندما كانت عزيزة علينا، أما الآن وقد نالت سخطنا واستياءنا فإننا قد حرمانا من هبتنا ومن أبوتنا. فبعد كل ما سمعتما، من منكما ما زال يرغب في الزواج من هذه الفتاة التي لا تملك من حطام الدنيا سوى هذا الجسد الهزيل؟"

قال إيرل بورجوندي: "إذا كان الأمر كما قلت أيها الملك فأنا مضطر إلى سحب طلبي".

ثم توجه إلى كورديليا قائلاً: "بما أنك خسرت الأب، فيجب أيضاً أن تخسري الزوج".

أما ملك فرنسا فقد كان أكثر حلماً وتروياً فتوجه إلى الملك وقال: "إن الأمر غريب جداً، منذ لحظات قليلة كنت تمدح فيها وتقول أنها أغلى بناتك وأحبهم إليك وأقربهم إلى قلبك وأنت لا تجد راحة في سنك وشيخوختك إلا معها. فيا ترى ما الذي حدث في هذه الفترة الوجيزة لكي يدمر كل هذه المودة. لا بد أنها اتكبت جريمة بشعة أو أساءت إساءة بليغة لكي تستحق كل هذا السخط. فهل يمكنني أن أسأل عن ذنبها يا سيدي؟"

فكر لير في السؤال ولم يجد في ذهنه رداً حاضراً، فاقتربت كورديليا من والدها وركعت أمامه. قالت: "مولاي العزيز سأطلب من جلالتك فقط أن تبين أنني لم أرتكب جريمة بشعة أو أسلك سلوكاً شريراً أو أفعل ما يخل بالشرف والعفة، وأن كل جريمتي أنني لا أحسن التملق والإطراء ولا يجيد لسانني أن يقول كلاماً لا يعنيه عقلي ولا يصدقه قلبي."

رد عليها لير بحدة: "ليتك لم تولدي قبل ألا تجدي من الكلمات ما يرضيني."

قال ملك فرنسا "هل هذا كل ما في الأمر؟ تحفظ طبيعي وصدق في القلب يمنع الإنسان الإطراء والمداهنة؟ وهل ما يرضي الملك هو الكلام أم الأفعال؟ إن الحب لا يكون حباً عندما يتم الخلط بينه وبين الاعتبارات المادية. إن كورديليا ثروة في حد ذاتها. مولاي الملك إنني ما زلت أطلب كورديليا ملكة لي، وملكة لكل فرنسا".

لير: "ها هي خذها فهي لك. هذه ليست ابنتنا ولا نريد أن نرى وجهها مرة أخرى، اذهب بها محرومة من أموالنا وبركتنا وحبنا."

ودعت كورديليا أختها وأوصتهما بأبيها ثم مضت مع زوجها راحلة إلى فرنسا.

ثم انصرف الملك مع حاشيته وانفض الجمع.

جحود الأبناء

اختلت جونريل بأختها ريجان وقالت: "هل سمعت ما قال أبي، لقد قال أكثر من مرة أنه كان يحب كورديليا أكثر منا، وهذا ما يؤكد شكوكنا ومخاوفنا من أنه كان سيفضلها علينا، انظري أيضا إلى تسرعه وطيشه، فقد حرمها لأتفه سبب".

ريجان: "نعم يا أخت إنها أعراض الشيوخة التي يصاحبها ضعف العقل وعدم القدرة على ضبط النفس. انظري إلى الطريقة التي عامل بها صديقه المقرب كينت".

جونريل "نعم وانظري إلى الطريقة التي عامل بها ملك فرنسا، فإنه لم يودعه بشكل يليق بمكانته وتجاهل كل أعراف البروتوكول".

ريجان: "إذا استمر في التصرف بهذه الحماسة والطيش، فإنه سيسبب لنا من المشاكل ما لا نحتمل. ولن يكون التنازل عن العرش سوى بداية المتاعب. لذا أقترح أن نوحّد موقفنا وأن ننسق معا لكي نكبح جماحه ونتصرف معه بالطريقة الملائمة".

جونريل: "معك حق يا ريجان. سيتعين علينا أن نتصرف بعقلانية حتى لا تخرج الأمور عن السيطرة ويصير ما اكتسبناه حبرا على ورق".

وفي صباح اليوم التالي أمر الملك لير بإغلاق القصر بعد أن قرر التخلي عنه وغادر للإقامة مع ابنته الكبرى جونريل في الشهر الأول، على أن يرحل في الشهر الثاني للإقامة مع ابنته الوسطى ريجان.

وفي هذه الأثناء عاد جلوستر مع ولديه إدموند وإدجار إلى القلعة التي يعيش فيها والتي تقع تحت إمرة الدوق كورنوال زوج ريجان. بالرغم من أن جلوستر كان لا يميز في المعاملة والحب بين ولديه إلا أن إدموند كان يشعر في أعماقه دائما بالحقن

والغضب على الظروف التي جعلته ابنا غير شرعي، فقد كان إدموند لا يقل عن أخيه في التعليم والقوة والأناقة واللياقة، بل إنه كان أكثر منه وسامة ولباقة وفصاحة ودهاء. كان إدموند من داخله متمردا على التقاليد والعادات التي تجعل الابن الغير شرعي أقل حظا في الميراث من أخيه والتي تجعل الابن الأكبر يرث وحده اللقب بعد أبيه. كان يتساءل في نفسه لماذا يجب عليه أن يكون أدنى شأنًا وأقل مكانة من أخيه الذي كان يراه ساذجا وضعيفا.

وكان إدموند يعلم أنه لن يصل إلى الميراث واللقب إلا إذا تخلص من أخيه، فوضع خطة محكمة للإيقاع بين أخيه وأبيه فمكث طوال الليل يقلد خط أخيه ويكتب خطابا يوحي بأن إدجار يتآمر على أبيه ويسعى للتخلص منه.

وقف إدموند على مقربة من أبيه وتظاهر بأنه لا يراه وفتح الخطاب وتظاهر بقراءته.

جلوستر: "إدموند! كيف حالك؟ ما الاخبار؟"

تظاهر إدموند بالارتباك وحاول إخفاء الرسالة في جيبه وقال: "لا شيء يا سيدي، كل شيء على ما يرام".

جلوستر: "إذن لماذا تحاول جاهداً إخفاء تلك الرسالة؟"

إدموند: "أرجوك يا سيدي، إنها رسالة من أخي ولم أنته من قراءتها، ولا أظن أن محتواها يليق بأن تطلع عليه".

مد جلوستر يده وقال بصوت حاد: "أعطني الرسالة يا إدموند".

أخذ جلوستر الخطاب وارتدى نظارته وبدأ في القراءة بصوت عالٍ: "إن العادات والتقاليد التي تحتم علينا توقير كبار السن وتبجيلهم واحترام رأيهم والانصياع إلى أوامره ما هي إلا خدعة كبيرة لا تؤدي إلا إلى تعطيل طاقات الشباب والحد من طموحهم وقدراتهم. ما الفائدة عندما تأتينا الثروة بعد أن نتقدم في السن ولا نستطيع الاستمتاع بها. أن أبي طاغية وعجوز ومخرف، يحكم ويتحكم فينا لأننا جبناء وضعفاء غير قادرين على التعامل بحسم. تعال يا أخي أشرح لك المزيد من التفاصيل. ولتعلم يا أخي أنه إذا نام والدنا نومته الأخيرة، فستستمتع أنت بنصف ثروته إلى الأبد وتعيش مقربا ومحبوبًا لأخيك. إدجار."

تغيرت ملامح جلوستر وبدأ أن عقله دخل في دوامة عنيفة ثم صاح: "مؤامرة! خيانة! ابني إدجار يقول هذا؟ طاغية؟ مخرف؟ إذا نام نومته الأخيرة؟ كيف طاعه عقله وقلبه أن يكتب هذا الكلام؟ والده؟ والده الذي يحبه بكل جوارحه؟"

ازداد غضب جلوستر حدة ثم قال: "الشرير البغيض! الخائن النذل! الوحش الهمجي! لا إن الوحوش في البرية لا تفعل هذا مع آبائها! اذهب يا إدموند، ابحث عنه واعتقله. هذا الولد العاق المقيت."

إدموند: "سأبحث عنه على الفور يا سيدي وأبذل قصارى للسيطرة على الأمر."

مضى جلوستر مذهولا وبدأ يحدث نفسه ويقول: "ما الذي يحدث في هذا الزمان؟ ما الذي غير العالم؟ حروب وشغب في كل مكان، مؤامرات في القصور، فرقة بين الأحباب، خيانة بين الأصدقاء، إنقسام بين الإخوة، إنهيار الروابط بين الأقارب. يبدو أن الماضي وقيمه النبيلة قد ذهب ولن يعود، ولم يبق أمامنا إلا النفاق والغدر والفوضى، ليتني كنت في قبري قبل أن أرى هذا اليوم. حتى الرابطة بين الابن وأبيه؟ كيف يمكن للكبد أن يطعن القلب؟ كيف يتآمر طفل على حياة أبيه؟"

بعد أن احتال إدموند على أبيه بالرسالة المزورة، ذهب إلى أخيه لكي يكمل باقي المكيدة.

تظاهر إدموند بأنه مهموم وحزين وأخذ يتنهد بعمق وهو يقول: "آه لهذا الزمان! آه لتقلبات الطبيعة! إن هذا الكسوف ينبئ باضطرابات رهيبة في حياة الناس!"

إدجار: "مرحبًا يا أخي إدموند! ما هذا الهم والانزعاج الذي يسيطر عليك؟"

إدموند: "أنا أفكر يا أخي، قرأت اليوم نبوءة بأن كسوف الشمس يؤدي إلى كوارث رهيبة بين البشر."

إدجار: "هل تضيع وقتك حقا في مثل هذه الأمور التافهة؟"

إدموند: "صدقني يا أخي، إن عواقب الكسوف ستكون وخيمة علينا، مثل انقطاع الصلة بين الطفل ووالده، وانتشار المجاعات ونهاية الصداقات، وكثرة الطلاق واشتعال الحروب والمؤامرات بين الملوك والنبلاء."

نظر إدجار إلى أخيه باستغراب، ثم ضحك وقال: "منذ متى وأنت تهتم بعلم التنجيم؟"

قال إدموند متجهما: "متى رأيت والدي آخر مرة؟"

إدجار: "الليلة الماضية".

إدموند: "هل تحدثت معه؟"

إدجار: "نعم، لمدة ساعتين كاملتين."

إدموند: "وهل شعرت منه بتغير في المعاملة؟"

إدجار: "لا، على الإطلاق."

إدموند: "تذكر جيدا يا أخي، ربما تكون قد أساءت إليه عن غير قصد."

إدجار: "لا أدري عما تتحدث، هل يمكنك أن توضح أكثر؟"

إدموند: "أبي ثائر جدا فقد بلغه أنك قلت أن الأبناء عندما يبلغون سن الرشد ينبغي على الآباء أن يسندوا إليهم مسئوليات أكثر."

إدجار: "نعم أنا قلت هذا، فما العيب في أن يساعد الولد أباه."

إدموند: "كما بلغه أنك قلت أن الأب في هذا الوقت يجب أن ينتقل تحت وصاية الابن ويترك الابن يدير شؤنه."

إدجار: "لا أنا لم أقل هذا على الإطلاق، هذا كذب وافتراء. سأذهب أشرح له الأمر."

إدموند: "لا يا أخي، إنني أخاف على سلامتك. إن أبي ثائر وغازب جدا وليس من الحكمة على الإطلاق أن تتحدث معه وهو في هذه الحالة. دعني أشرح له الأمر واترك له الفرصة حتى يهدأ."

إدجار: "أود لو أعرف هذا الوغد الذي أوقع بيني وبين أبي."

إدموند: "خذ يا أخي مفتاح بيتي واجلس فيه حتى تصفو الأمور. ولا تنس أن تأخذ معك سلاحك."

إدجار: "آخذ معي سلاحي؟ سلاحي يا أخي؟ لابد أنك تمزح."

إدموند: "لن أكون أخا بحق إذا لم أنصحك بما فيه مصلحتك. إن الأمر خطير جدا، ولا أريد أن أوضح أكثر، فما قلته لك أقل بكثير مما رأيت وسمعت."

إدجار: "وهل سأسمع منك يا أخي عندما تتحسن الظروف؟"

إدموند: "في أسرع وقت، وسأبذل كل ما في طاقتي."

كان إدموند في منتهى السعادة أن خطته تسير بنجاح، وقال في نفسه: "أب أحمق وأخ ساذج، وهذا يجعل الوصول إلى الغاية سهلا وميسورا. إذا لم أحصل على الميراث بحق الميلاد، فسأحصل إليه بالذكاء والدهاء. من أجل الوصول إلى هذا الهدف كل الوسائل مشروعة ومباحة."

وفي هذه الأثناء ذهب الملك لير مع فرسانه إلى الصيد، وكانت جونريل بدأت تضيق من والدها وتشتكي إلى حاشيتها وزوجها من كل صغيرة وكبيرة من تصرفات والدها.

وقبل عودة والدها من الصيد كانت تتحدث مع أوزوالد كبير الخدم الذي قال لها: "هل تعلمين يا سيدتي أن جلالة الملك ضربني لأنني وبخت بهلول على نكاته السخيفة؟"

نظرت إليه جونريل بدهشة. قالت: "هل فعل هذا حقا؟ إنه شيء بشع. ثم إنه ليس جلالة الملك، هو فقط والدي."

أوزوالد: "نعم يا سيدتي."

تنهدت جونريل ثم قالت: "إنه يضغط على أعصابي ليلاً ونهاراً، ولا تمر ساعة دون أن يرتكب حماقة مؤسفة. لم أعد أستطيع أن أتحمّل ذلك. لقد أصبح هو وفرسانه مصدر شغب وإزعاج في القصر. عندما يعود من الصيد لن أتحدث معه. قل له إنني نائمة."

أوزوالد: "تحت أمرك يا سيدتي."

جونريل: "هناك شيء آخر، لا تجعلوه يشعر بالترحاب أو الحفاوة، ولا تعاملوه بنفس الدرجة من الاحترام أو الأدب، وإذا حدثت مشكلة فسأتحمّل أنا المسؤولية عن ذلك. وبلغ هذا لجميع من تحتك من الأتباع والخدم."

أوزوالد: "تحت أمرك يا سيدتي."

جونريل مستدرجة: "ولا تطيعوا أمرا لأحد من فرسانه. إذا لم يعجبه ذلك فليذهب إلى أختي. وأنا أعلم تماماً أنها متفقة معي في الرأي. لا يجب أن نسلم أمرنا لرجل عجوز مخرف. يظن أنه يمكنه التمسك بالصلاحيات التي تنازل عنها! إن العواجيز يعودون أطفالاً مرة أخرى ويجب أن نصح سلوكهم، مرة بالتدليل ومرة بالشدة. لا تنسى ما قلته لك."

أوزوالد: "تحت أمرك يا سيدتي."

مؤامرات الأمراء

كان كينت قد قضى معظم حياته في خدمة الملك وكان الملك يعامله معاملة خاصة فكان من أقرب المقربين إليه، يحادثه كابنه المدلل ويستشير كوزيره الأمين. وبالرغم من أن الملك كان يطيش عقله حين يغضب فقد كان كينت يعلم أنه طيب القلب كريم الأخلاق وكان يريد أن يظل بقرب الملك حتى يبقى عينه الحارسة كما كان دائما. لذلك وضع خطة للعودة إلى خدمة الملك مرة أخرى، فتنكر كرجل بسيط وغير صوته ولهجته.

وانتظر كينت في الفناء خارج قصر الدوق أولباني. وعندما عاد الملك وفرسانه من الصيد مشى نحوه واستوقفه وقال له: "أيها الملك الجليل، هل لك في خدمة رجل بسيط ولكن قلبه نبيل، يخدم بصدق ولا يقول إلى القليل، يؤثر السلامة ويقاوم حين لا بديل، يبلغ الرسالة دون نقص أو تهويل، وينفذ الأمر مهما كانت العراقيل، ويفدي مولاه بنفسه دون تردد أو تأجيل."

لير: "إن كنت كما قلت فنعم الخادم أنت. اتبعني وسأجربك، فإن صدقت أفعالك كلامك فستكون من رجالي."

دخل لير القصر مع فرسانه وطلب العشاء فامتدت الموائد ووضع الطعام.

وفي هذه الأثناء رأى لير أوزوالد فقال له: "أنت أيها الفتى، أين ابنتي؟"

نظر إليه أوزوالد ثم أدار وجهه متجاهلا وهمهم بصوت منخفض: "معذرة فأنا مشغول."

اندهش لير وتساءل: "ماذا قال هذا الفتى؟" ثم أشار إلى أحد الفرسان لاستدعائه مرة أخرى.

سارع الفارس وراء أوزوالد، ثم عاد وقال: "يقول يا مولاي، إن ابنتك نائمة."

احمر وجه لير وقال: "لماذا لم يأت عندما ناديت عليه؟"

أجاب الفارس: "سيدي، عندما سألته هذا السؤال أجابني بمنتهى الوقاحة وقال إنه مشغول!"

تساءل لير متعجبا: "مشغول؟"

الفارس: "مولاي، لا أعرف ما الذي يحدث بالضبط، لكن أرى أنه لا يتم التعامل مع سموك بنفس الحفاوة السابقة. هناك فتور ملحوظ من الخدم وكذلك من الدوق نفسه وابنتك".

لير: "ها! هل هذا صحيح؟"

الفارس: "مولاي أتوسل إليك أن تعذرني إذا كنت مخطئاً. ولكن واجبي لا يسمح لي أن أصمت عندما أرى أن هناك ما يدعو للريبة."

لير: "بالطبع، شكرا لك أيها الفارس النبيل."

ثم تفكر لير وقال لنفسه: "لقد لاحظت ما لاحظت أيها الفارس. وقد كنت أظن أنها حساسية مفرطة مني تجعلني أبالغ في تقدير الأشياء."

انتهى العشاء وغادر الفرسان ولم يبق إلا بعض الأفراد ومن بينهم كينت.

ثم ظهر أوزوالد في القاعة مرة أخرى فنادى عليه الملك: "أوه، أنت، أنت، أنت أيها الفتى".

تقدم أوزوالد ونظر إليه أوزوالد وحاجباه مرفوعان ذراعا مطويان وقال: "نعم؟"

لير: "أخبرني، من أنا؟"

أوزوالد: "أنت والد سيدتي".

غضب لير وقال: "والد سيدتي؟ يا كلب يا ضيع يا هجين!"

ابتسم أوزوالد ببرود ونظر إلى لير بتحد وقال: "من فضلك أنا لست أيا من هؤلاء".

لير: "أترد علي أيها الوغد؟" ثم صفعه على وجهه.

قال أوزوالد بنفس نبرة التحدي: "ليس من حق أحد أن يضربني".

تقدم كينت فعرقل أوزوالد من قدميه ثم دفعه فسقط على الأرض وقال: "وهل يحق لأحد أن يوقعك؟"

شعر أوزوالد بالارتباك والإحراج فقام وانصرف.

قال لير لكينت: "أشكرك يا صديقي، من اليوم أنت من رجالي وسأعتني بك. خذ هذه". وناولته قطعة معدنية.

اتجه لير إلى أحد رجاله وقال: "أين بهلول، لم أره منذ وقت طويل، اذهب وناد عليه."

وكان بهلول فتى صغير السن حكيم العقل باسم الوجه خفيف الظل سريع البديهة لطيف الدعابة، وكان الملك دائما ينسى همومه ومشاغله عندما يتحدث معه.

دخل بهلول على الملك وقال: "أهلا يا عمو وحشتنا، ظننت أنك هاجرت إلى بلد أخرى."

لير: "حبيبي الصغير كيف حالك؟ أنت تعلم، كنا في الصيد."

بهلول: "هل أحضرت لي شيئا من الصيد يا عمو، زرافة، نعامة أو حتى غزالة صغيرة؟"

لير: "أعلم أنك كنت ستسأل هذا السؤال. أحضرت لك معي ثعلبا وأرنبيين أحياء."

بهلول: "آه، شكرا يا عمو، أنا أحبك يا عمو. أنت طيب جدا يا عمو!"

الملك: "والآن، قل لي نكتة يا بهلول."

بهلول: "نكتة للشباب أم للعواجيز؟"

لير: "نكتة للعواجيز، فأنا لا أفهم نكات الشباب."

بهلول: "عمو، تعرف ليه الطباخ هيدخل النار؟"

الملك: "لا، قل لي أنت."

بهلول: "علشان معندوش رحمة، بيضرب الكريمة، ويقطع التفاح، ويقلي البطاطس في الزيت."

ضحك لير بشدة.

بهلول: "ألم أقل لك يا عمو، أنت قديم جدا. اليوم لا أحد يضحك على هذه النكت إلا أنت. تعرف يا عمو، أنا قلت لك هذه النكتة خمس مرات من قبل، وفي كل مرة تضحك عليها."

ضحك لير أكثر على كلام بهلول وتهكمه، ثم قال: "حسنا دعنا من النكات وقل لي شعرا ولكن بشرط أن يكون جديدا تماما."

بهلول: تحت أمرك يا عمو

كلامي خليط في خليط

والدنيا كلها شخابيط

ما بقتش بتعرف مين طيب

او مين خداع وبعقل حويط

ما بقتش بتعرف مين حابك

او مين كارهاك

او مين بيخبط فيك تخبيط

او مين كان اصلا قلبه عليك

او مين بالعين والروح يفديك

او مين يتاويك جوه ف قلبه

أو مين لو زاهدك ينهش فيك

الدنيا خليط من دا ومن دا

مين يبقى معاك وقت الشده

او مين يدريك بعد ما تدي
او مين ف رحيلك قال خليك

لير: "جميل يا بهلول، والآن قل لي حكمة لم يقلها أحد من قبل."

بهلول: "طالباتك كثير يا عمو، ماشي، خذ هذه: من يسبح عكس التيار يغرق ومن يستهتر بالنار تحرقه."

لير: "المعنى حلو ولكن ليس فيها سجع." ثم وضع يده على لحيته وأخذ يفكر ثم قال: "ما رأيك لو قلنا: من سبح عكس التيار مات غريقا ومن استهتر بالنار مات حريقا."

بهلوك: "برافو يا عمو! ممتاز يا عمو! أنت أفضل من بهول يا عمو! خذ طرطوري والبسه فأنت أحق به."

ضحك لير بشدة وبدا عليه أنه نسي عناء الرحلة والتكدير الذي تعرض له بسبب تجاهل أوزوالد.

بهلول: "اسمع يا عمي، أعطني بيضة وسوف أعطيك تاجين."

لير: "كيف هذا يا فتى؟"

بهلول: "أكسر البيضة نصفين وآكل ما بداخلها ثم أعطيك القشرتين تصنع منهما تاجين."

ضحك لير وقال: "لكن المقاس لن يكون مناسب يا فتى."

بهلول: "عمو، هل تحب أن أعطيك بعض الحكم الأخرى".

لير: "منذ متى وأنت مليء بالحكم والأغاني يا فتى؟ قل ما عندك".

بهلول:

"لا تؤمن بكل ما تسمع

ولا تنبهر بكل ما يلمع

ولا تبغثر كل ما تجمع

ولا تعط لكل من يطمع

ولا تتخدع بكل من يخدع

نصيحة مني لكل من يسمع"

وفي هذا الوقت دخلت جونريل القاعة وكان وجهها عابسا قاتما.

نظر إليها لير وقال: "مرحبا ابنتي، لماذا يبدو عليك هذا العبوس والاستياء؟"

كان بهلول يقف بينهما فقال: "إيه، أين تلك الأيام التي كانت حياة الملك فيها لا تتأثر بعبوس أحد أو سروره. عجلة الحظ تدور يا عمو، ومن كان بالأمس تلميذا أصبح اليوم هو الناظر، والناظر أصبح تلميذا."

نظرت جونريل إلى بهلول بحدة وغضب، فخاف بهلول وقال: "نعم، حقًا، سأمسك لساني." ثم ذهب واختبأ خلف الملك.

أصبح وجه جونريل أكثر قتامة، وبدأت في الحديث إلى والدها قائلة: "المشكلة ليست في بهلول فقط يا سيدي، فإن الآخرين من حاشيتك يتصرفون بشكل وقح، ويتشاجرون طوال الوقت، ويقومون بأعمال شغب لا تطاق. سيدي، كنت أعتقد أنني إذا لفت انتباهك إلى هذه التصرفات، ستكون قادرا على الحد منها، ولكن ما أخشاه

أنك بسكوتك هذا فأنت تسمح بهذا السلوك بل وتشجع عليه. إن التداعيات ستكون خطيرة ولن تكون في صالحنا جميعاً. لذا أجد نفسي مضطرة أن أتصرف بما تقتضيه الحكمة والمصلحة".

نظر بهلول إلى لير وقال: "هل تعلم يا عمو، وجدت العصفورة بيضة حداية على الأرض، فأخذتها وأدفأتها، وعندما فقس ربتها وأطعمتها، فكان جزاؤها أن الحداية عندما كبرت قطعت رأسها وأكلتها".

لم يسمع لير شيئاً مما قاله بهلول، فقد كان من الصعب عليه أن يستوعب ما سمعه من جونريل، فحدق إليها وقال: "هل أنت ابنتنا؟"

جونريل: "أتمنى أن تحكم عقلك، وأن تتخلى عن هذه التقلبات المزاجية التي غيرت شخصيتك".

نظر لير لمن حوله بئس وقال: "غيرت شخصيتي؟ هل يعرفني أحد هنا؟ هل أنا لير. وإذا لم أكن لير، فمن أكون؟"

رفع بهلول يده وقال "أنا أعرف الإجابة، أنت خيال لير".

قال لير: "أنا في كامل قواي العقلية والدليل على هذا أنني أعلم أنني أنجبت ثلاث بنات".

قال بهلول: "وهم عازمون على أن يجعلوا منك أباً مطيعاً لهم".

أراد لير أن يعبر عن المتاهة التي يعيش فيها عقله فتوجه إلى جونريل وسألها: "ما اسمك أيتها السيدة اللطيفة؟"

زاد غضب جونريل أكثر فقال بصوت أكثر حدة: "لا داعي لهذه المسرحيات والألاعيب الغريبة. أرجو أن تفهمني. أنت رجل كبير في السن ومحترم لذا يجب أن تتحلّى بالحكمة. إنك تحتفظ بمائة فارس، مائة فارس، ليس لهم عمل سوى الشرب والعريضة والفساد حتى أصبح القصر أشبه بالحانة أو بيت الدعارة. لذا كل ما أطلبه هو أن تقلل من عدد هذه الحاشية، وتحتفظ لنفسك بمن يلائمون سنك ويتميزون بحسن التصرف والسلوك."

لم يستطع لير احتواء نفسه فصاح في وجه جونريل: "يا لهيب الجحيم! يا لعنات الشياطين! أيتها الحية البغيضة، كل ما تقوله كذب وافتراء، رجالي هم فرسان نبلاء شرفاء، انتقيتهم بنفسى وهم يعرفون واجبهم ويحافظون على سمعتهم."

بدأت الدموع تنهمر من عيني لير وهو يقول: "آه من الجحود، آه من العقوق. قلب من الحجر الأصم؟ هل تجسد وحش البحر في صورة ابنتنا؟ ماذا يفيد الندم بعد فوات الأوان. ولكن لن أنقل عليك فما زال عندي ابنة أخرى. سأذهب إلى ريجان وعندما تسمع بما حدث فسوف تخذش وجهك الكئيب بأظافرهما."

نظر لير لمن حوله من أتباعه وقال: "اسرجوا الخيول! اجمعوا الفرسان."

وهنا دخل دوق أولباني زوج جونريل وقال: "ما الأمر يا سيدي؟ اهدأ يا سيدي!"

تجاهلت جونريل كلام زوجها ووجهت كلامها لأبيها: "إنك تضرب رجالي، وفرسانك يأمررون وينهون في القصر كأنهم أسياد ونحن العبيد."

قال لير وما زالت الدموع تنهمر من عينيه: "ألا تشعرين بالخجل وأنت تبعثين كرامة أبيك بهذه الطريقة، بحق الحياة والموت، لتكن دموعي لعنة عليك في كل مكان وزمان. أيتها الطبيعة، اسمعي! أيتها الآلهة، اسمعي! جففوا رحم هذه المرأة واجعلوها عقيمة لا تلد! وإن ولدت فاجعلوا طفلها خبيثاً حتى يذيقها من العذاب"

والشر والقسوة مثل ما أذاقتني، حتى تعلم أن الجحود والعقوق أشد حدة على القلب من أسنان الثعبان."

اندفع لير خارج القصر والدموع تتدفق بغزارة من عينيه، وحدث نفسه قائلاً: "لن أبكي، لن أبكي، حتى وإن تحطم قلبي ألف قطعة لن أبكي. عيون مسنة حمقاء، إذا لم تتوقفي عن هذا البكاء، فسوف أنزعك من رأسي وألقي بك في الوحل!"

قال دوق أولباني متعجباً: "بحق الآلهة التي نعبد، كيف بدأ كل هذا؟"

جونريل: "لا تزعج نفسك يا سيدي، دع تخاريف الشيخوخة تحدد له الطريق الذي يسير فيه."

دوق أولباني: "بكل ما أحمله من الحب لك يا جونريل، لا يمكنني أن أكون محايداً في النظر إلى هذا الأمر."

جونريل: "مائة فارس؟ مائة فارس؟ هل من الحكمة أن نسمح له بالإبقاء على مائة فارس في كامل عتادهم وسلاحهم! فإذا حدثت أي مشكلة أو نزوة أو هفوة نجد حياتنا عرضة للخطر."

قال أولباني: "حسنًا، ربما أنك تقلقين أكثر من اللازم."

جونريل: "القلق الزائد أفضل من الاطمئنان الزائد، فالقضاء على الخطر خير من أن تعيش في ظله."

أولباني: "لا أعرف إلى أي مدى أنت على حق. في بعض الأحيان، عندما نحاول تحسين الأمور فإننا نجعلها أسوأ."

نادت جونريل على خادمها أوزويل وأعطته رسالة إلى أختها وطلبت منه أن يضيف من عنده ما يجعل الرسالة أكثر إقناعاً. وكانت جونريل حريصة أشد الحرص على أن ترفض أختها ضيافة أبيها حتى لا تظهر هي بمظهر البنت الجاحدة الشريرة. وكانت وساوسها تهىء لها أن الملك قد يجمع جيشاً ويعود للاستيلاء على نصيبها الذي أعطاه لها.

وقف لير خارج قصر أولباني مع بهلول وكينت وبقية فرسانه وأعطى لكينت رسالة وقال له: "اسبقنا بهذه الرسالة إلى ابنتنا ريجان ولا تتباطأ حتى لا نصل هناك قبلك".

كينت: "مولاي، لن أجلس أو أستريح أو تغفل لي عين حتى أسلم رسالتك".

لير لأحد الفرسان: "جهزوا الخيول!"

بهلول: "إذا كان عقل الرجل في قدميه هل يستطيع أن يمشي حافياً؟"

لير: "لا يا بني". كان الملك يجيب على بهلول لكن الفكر والتوتر والاضطراب بداخله كان أكثر مما يحتمل.

بهلول: "صح، لأنه إذا مشى في الطين حافياً فقد يصاب عقله بلوثة، ها ها ها".

ضحك لير ضحكة مصطنعة تملؤها المرارة.

بهلول: "يا ترى، هل ستكون ابنتك الأخرى لطيفة؟"

لير: "نعم يا بني".

بهلول: "هل تعلم يا عمو لماذا عندنا أنف واحد في منتصف الرأس وعينان على الجانبين؟"

الملك: "لا أدري، لماذا؟"

بهلول: "حتى تشم بأنفك ما لا تراه عيناك."

لم يكن لير منتبها لبهلول وقال بصوت خافت: "لا أدري".

بهلول: "هل تعرف يا عمو لماذا يصنع المحار قوقعته؟"

لير: "لا أدري".

بهلول: "لكي يختبئ فيها، لا ليعطيها لغيره ويصير بلا بيت."

قال لير وقد ملأه التفكير: "لا أدري. طول عمري كنت أبا حنونا ولم أقصر في شيء."

بهلول: "هل تدري يا عمو لماذا أيام الأسبوع سبعة؟"

لير: "لأنهم ليسوا ثمانية؟"

بهلول: "أنت أحسن من بهلول نفسه. وأيضا لأن اسمه أسبوع وليس أثمون. ها ها ها."

غرق لير في أفكاره تماما وتمتم قائلاً: "هل من المعقول أن يكون في الدنيا مثل هذا الجحود؟ هل من الممكن أن تتحدى البنت أباه بهذه الطريقة؟!"

بهلول: "تعرف يا عمو، فرح الكتكوت بريشه الطويل ولكن لعنة الديك العجوز ألقت به إلى الهاوية"

لير متأوها: "آه أيتها السماء لا تتركيني أصاب بالجنون. أيتها الكواكب السيارة احفظي علي عقلي. أنا لست مجنوناً. لا أريد أن أكون مجنوناً!"

قاطعهم أحد الفرسان عندما اقترب وقال: "الخيول جاهزة يا مولاي."

ركب لير فرسه وسار مع بهلول وخلفه الفرسان في طريقه إلى ابنته الوسطى ريجان.

بعد أن أقنع إدموند أباه بأن إدجار يتآمر عليه وأطلعه على الرسالة المزيفة، وبعد أن أقنع إدموند بأن أباه ثائر ضده وطلب منه الاختباء في بيته، أراد أن يستكمل باقي الخطة لكي يتخلص من إدجار إلى الأبد.

ذهب إدموند إلى أخيه وهو يجري ويلهث من التعب ونادى عليه: "إدجار، أخي، افتح بسرعة!"

فتح إدجار الباب وظهر عليه الاضطراب وقال: "ما الأمر يا أخي؟ ماذا حدث؟"

إدموند: "اهرب، اهرب بسرعة من هذا المكان. والدي يعرف أين تختبئ. وقد أرسل بعض الجنود للقبض عليك."

إدجار: "للقبض علي؟ لماذا؟"

قال إدموند وهو يلتفت حوله ويتظاهر بالارتباك: "لا وقت للكلام والتفكير، انج بنفسك يا أخي، اهرب بسرعة. سيحضر الجنود هنا خلال دقائق معدودة. وإذا حضروا سأضطر لمساعدتهم في القبض عليك. اهرب! وداعا يا أخي!"

بعد هرب إدجار جرح ذراعه بسيفه، فقد كان يرى أن اللصوص والسكران يفعلون أكثر من ذلك للوصول إلى أهدافهم. ثم ذهب إلى أبيه وهو ينزف.

جلوستر: "ماذا حدث يا إدموند؟ ما الذي أصابك في ذراعك؟"

إدموند: "لقد كان يحاول أن يقنعني بقتلك يا أبي."

جلوستر: "من؟ إدجار اللعين؟"

إدموند: "أخبرته أن الآلهة تصب غضبها على كل من يقطع الرباط المقدس بين الطفل ووالده، وستطاردنا لعنات الآلهة أينما ذهبنا. وعندما رأى أنني أعرضه في رأيه، رفع علي سيفه وأصابني في ذراعي، ثم هرب."

جلوستر: "دعه يهرب حيث يشاء، فطالما بقي على هذه الأرض فسنعثر عليه ويلقى جزاءه". ثم أمر جلوستر جنوده بالبحث عن إدجار في كل مكان.

وكان جلوستر يعمل تحت إمرة الدوق كورنوال وزوجته ريجان. فذهب إليهما وأخبرهما بما حدث من ابنه كما أخبره ببطولة إدموند وإخلاصه وتفانيه في الدفاع عن أبيه. فأبدت ريجان إعجابها بإدموند وأثنت على شجاعته وقرر كورنوال أن يكافئه بأن يجعله من فرسانه المقربين.

طرد الملك

وصل أوزوالد بالرسالة من جونريل إلى أختها ريجان تحذرها فيها من سلوك أبيها ومن أنه في طريقه إليها للإقامة في قصرها، وكانت ريجان غير مرتاحة لفكرة استضافة أبيها في بيتها.

ثم وصل كينت إلى القصر وسلم حصانه إلى عمال الاسطبل. فدخل عليه أوزوالد ولم يعرفه وقال: "مساء الخير يا صديقي. هل أنت خادم هنا؟"

كينت: "نعم".

أوزوالد: "هل تعلم أين حصاني؟"

كينت: "في الوحل مثل صاحبه".

أوزوالد: "لماذا تسيء إليّ وأنا حتى لا أعرفك؟"

كينت: "ولكنني أعرفك".

أوزوالد: "ماذا تعرف عني؟"

كينت: "أعرف أنك فاسد ووضيع ومتسول وقذر ومحتال وجبان".

أوزوالد: "يا لك من شخص وحشي، تشتم شخصاً لا تعرفه ولا يعرفك".

قال كينت: "يا لك من وغد وقح! لقد أتيت إلى هنا برسالة ضد الملك وأنت تقف مع الابنة ضد والدها."

ثم رفع كينت سيفه وقال: "أخرج سيفك أيها الوغد وبارزني!"

ارتعب أوزوالد من المفاجأة، فنظر حوله في يأس ثم صاح: "المساعدة! إنه يحاول قتلي! المساعدة!"

وصل صوت الصياح إلى آذان الدوق كورنوال وزوجته ريجان، وعندما علما بما حدث بين أوزوالد رسول جونريل وكينت رسول الملك، أمرا بتعليق كينت من قدميه في التخشبية.

اعترض كينت وقال: "لماذا يا سيدتي؟ إذا كنت كلب والدك ولست رسوله، فلن تسيئي إليّ بهذه الطريقة."

ريجان: "ستعلق هنا حتى الليل، وطوال الليل أيضًا."

كان جلوستر موجودا أثناء ذلك فقرر التدخل في هذه اللحظة ووضع يده على كتف كورنوال، وقال: "سيدي اسمح لي أن أطلب منك ألا تفعل هذا. إن إهانة رسول الملك تعتبر إهانة شخصية للملك. عندما يحضر الملك نخبره بما حدث وسيعاقبه بالطريقة التي يراها."

كورنوال: "سأتحمل أنا المسؤولية."

ريجان: "إن أختي ستساء أكثر إذا علمت بالمهانة وسوء الأدب التي تعرض لها رسولها."

ثم دخل كورنوال وريجان إلى داخل القصر.

اقترب جلوستر من كينت وقال له: "أنا آسف لهذا، يا صديقي. إنها أوامر الدوق والجميع يعلم أنه لا يسمح بأن يعارضه أحد في رأيه. ولكن سأحاول مرة أخرى أن أتوسط لك عنده."

كينت: "لا داعي للوساطة يا سيدي، لقد قطعت شوطاً طويلاً في الطريق إلى هنا، والآن سأقضي بعض الوقت في النوم والبعض الآخر سأسلي نفسي بالصفير."

مشى جلوستر بعيداً وهو يهز رأسه بحزن ويقول: "هذا لا يليق، ولكن ليس في يدي شيء."

نظر كينت إلى قدميه في التخشيب وتذكر عندما كان نبيلًا عظيمًا يعمل له الجميع ألف حساب فابتسم وقال: "دوري يا عجلة الحظ دوري، اخفضي أناسا وارفعي أناسا."

بعد أن هرب إدجار بناء على نصيحة أخيه، وجد أن الحراس بدأوا ينتشرون في كل مكان وأن اسمه بدأ يتردد على الألسنة وأنه مطلوب القبض عليه فتأكد من صدق أخيه وأيقن أن حياته في خطر، كان إدجار على استعداد أن يفعل أي شيء لكي ينجو بنفسه من التهديد الذي يحيط به من كل مكان، لذا قرر الهروب إلى الغابة بعيدا عن المدينة. ليس هذا فقط بل إنه كان يتخفى في أبشع الصور، فلطخ وجهه بالقاذورات وترك شعره دون تصفيف وسار في الغابة نصف عار يواجه البرد والعواصف بدون حماية، فقد كان يرى المتسولين في أطراف الريف يغرسون المسامير وأغصان الشجر في أجسادهم ليستدروا عطف الناس ويبتزوا منهم الصدقات، فرأى أن الأولى به أن يفعل أي شيء للحفاظ على سلامته فادعى الجنون وصار يهذي بكلمات غير مفهومة وسمى نفسه توم المجنون. كان إدجار يرى أن هؤلاء المتسولين لديهم هدف يعيشون لأجله، أما هو بعد أن فقد حب أبيه وصار

مطاردا فلم يكن لديه أي شيء يعيش لأجله، بل كان يسعى للحياة فقط من أجل الحياة.

توقفت عربة لير أمام قصر ابنته ريجان، فنزل ومعه بهلول وبدأ يسير نحو أبواب القصر وهو يتعجب لأنه لا يوجد أحد في استقباله كما أن رسوله تأخر في الرجوع إليه.

رأى كينت الملك يمر من أمامه فناداه: "تحية طيبة يا جلالة الملك."

فوجئ لير عندما تعرف على خادمه ورسوله وصاح: "ها! تابعي ورسولي؟ ما هذا؟"

ضحك بهلول وقال: "تقيد الخيول من رؤوسها والكلاب من رقابها والقروود من خصرها أما الرجال فيعلقون من أقدامهم عندما يخرجون عن السيطرة."

لير: "من الذي أخطأ في حقنا إلى هذه الدرجة ووضعك هنا؟"

كينت: "الذي والتي يا مولاي، ابنتك وزوجها."

قال لير وهو غير مصدق: "لا!"

كينت: "نعم!"

لير: "أقول لا!"

كينت: "أقول نعم!"

ليير: "لا، لا، لا، لن يفعلوا ذلك!"

كينت: "نعم، نعم، لقد فعلوا ذلك بالفعل."

ليير: "لا! أقسم بعطارد والزهرة لا!"

كينت: "نعم! أقسم بعطارد والزهرة نعم!"

ليير: "لا، لن يجرؤوا على فعل ذلك. إنه أسوأ من القتل أن تهين رسول الملك بهذا الشكل. أخبرني ما الذي فعلته لتستحق هذا العقاب."

كينت: "سيدي، بعد أن قمت بتسليم رسالة سموك إليهم، وجدت رسولا بغیضا كان قد حضر لتسليم رسالة من سيدته جونريل، وكان الرسول هو نفس الخادم الذي تصرف مؤخرًا بوقاحة مع سموك. وعندما أهنت هذا الخادم وتحديته. أيقظ الأسرة كلها بصرخاته الجبانة العالية. لقد وجدت ابنتك وزوجها أن هذه الجريمة تستحق العقاب الذي أعاني منه الآن."

بهلول: "عندما يكون الأسد في قوته، تلعب الأشبال تحت رجليه، وعندما يضعف يلعبون فوق رأسه."

رفع ليير يده إلى حلقه وقال: "آه ما هذه المرارة في حلقي؟ وما هذا الاختناق في صدري، وما هذا الانكسار في قلبي؟ أين هذه الابنة؟

كينت: "في الداخل يا سيدي مع زوجها، وفي استضافتهم الإيرل جلوستر."

قال ليير وهو متجه نحو الأبواب: "لا تتبعوني وانتظروا هنا."

دخل لير إلى القصر فاستقبله جلوستر بحفاوة، وعندما سأل لير أحد الخدم عن ابنته وزوجها أبلغه أنهما متعبان.

ثار لير وقال للخادم: "متعبان؟ هل كانا على سفر طوال الليل؟ مجرد أعذار، بوادر تمرد وهجر. اذهب وأحضر لي إجابة أفضل."

قاطعه جلوستر وقال: "مولاي العزيز، أنت تعرف المزاج الحاد للدوق - وكم هو عنيد ويحب أن يكون له طريقته الخاصة."

صاح لير بغضب: "الطاعون! الموت! انتقام آلهة الشر! مزاج حاد؟ ماذا يعني مزاج حاد؟ أود التحدث إلى ابنتي وزوجها!"

جلوستر: "ولكن يا سيدي."

اقترب لير من جلوستر وحاول أن يتمالك أعصابه وتحدث معه بهدوء مصطنع: "ليس هناك 'كن'، الملك يرغب في التحدث إلى ابنته العزيزة وزوجها. هل يمكن إبلاغهم بذلك؟"

ثم اتجه لير إلى الخادم وقال له: "اذهب وأخبر الدوق وزوجته أنني أريد التحدث إليهما. في الحال! اطلب منهم أن يأتوا وإلا سأقرع باب غرفة نومهم بنفسي حتى يستيقظ كل من في القصر."

الخادم: "أمرك يا مولاي."

وبعد لحظات حضرت ريجان في صحبة زوجها الدوق كورنوال.

ابتسم لير وقال: "صباح الخير لكما!"

ابتسمت ريجان لوالدها وقالت: "أنا سعيدة برؤية سموك".

لير: "وأنا سعيد بترحابك يا ريجان. إذا لم تستبقليني بهذه الحفاوة كنت سأطلق أمك في قبرها، لأنني كنت سأظنها زانية وأنها أنجبتكم من الحرام."

اقترب لير من ابنته وبدأ يشكو لها مما حدث: "ابنتي الحبيبة ريجان، أختك لا تستحق حتى أن أسميها ابنتي. آه ريجان، لقد طعننتني بقسوة في قلبي، مثل الثعبان الذي يغرس أسنانه الحادة في جسد الإنسان، أو النسر الذي ينقض بمخالبه الحادة على ضحيته. لن تصدقي يا ريجان الطريقة البشعة التي ... آه يا ريجان!"

ريجان: "سيدي، أرجو أن تتحلى بالصبر، فلا يمكن أن أتصور للحظة أن أختي تقصر في أداء واجبها".

لير: "ها؟ ما هذا؟ ماذا تقصدين؟"

ريجان: "لا يمكن أن أشك في ولاء أختي لك. ولكن أظن أنها كانت تحاول أن تضع حداً لهمجية فرسانك، وأظن أن لديها في ذلك بعض الأسباب الوجيهة."

لير: "لعناتي عليها وعلى أسبابها!"

ريجان: "يا سيدي، أنت كبير في السن ولست على وعي ودراية كاملة بالأمور، يجب أن تستمع إلى الإرشاد والنصيحة من شخص أمين يعرف مصلحتك أكثر منك. لذا أرجوك أن تعود إلى أختي وتخبرها أنك ظلمتها."

لير: "ماذا؟ اسألها المغفرة؟ أجلس أمامها على ركبتى وأشبك يدي وأقول: ابنتي العزيزة، أعترف أنني عجوز ومخرف وأتوسل إليك أن تؤويني عندك وليس لي مطلب إلا الطعام والملبس والسرير؟"

ريجان: "سيدي، توقف عن هذه التمثيليات التي لا تليق بك. وارجع إلى أختي."

لير: "أبدًا يا ريجان لن أعود إليها. لقد أرادت أن تعزل نصف حاشيتي، ورمقتني بنظرات سوداء وسممتني بلسانها مثل الثعبان. أدعو أن تصب السماء انتقامها ولعناتها على رأسها الجاحد."

ريجان: "آه بحق الآلهة المباركة! هكذا ستلعني عندما يعتريك المزاج!"

لير: "لا يا ريجان، لن أدعو عليك أبدًا. إن طبيعتك الرقيقة لا تسمح لك بالقسوة. ولكن عيناها حادثان بشعتان. إن قلبك مملوء بالحب وليس بالضغينة والكراهية، أنت تقدرين المسؤولية وتفهمين واجبات الأبناء، أنت نموذج للبر والعطف والأخلاق الحميدة، أنت لم تنسي نصف المملكة الذي وهبته إياك."

ريجان: "سيدي، دعنا لا نخرج عن صلب الموضوع."

دوى صوت بوق في القصر معلنا وصول أحد النبلاء.

تساءل كورنوال: "لمن هذا البوق؟"

ريجان: "إنها أختي. لقد أكدت في رسالتها أنها ستحضر في أقرب وقت."

دخلت جونريل إلى القصر ففرع لير عندما رآها وقال: "يا أيتها الآلهة في السماء، هل تشعرون بكبار السن؟ هل يأتي يوم وتكبرون فيه مثلنا؟ هل تستطيعون حمايتنا والوقوف إلى جانبنا؟"

حدّق لير في وجه جونريل وقال: "ألا تخجلين من النظر إلى هذه اللحية البيضاء؟"

ذهبت ريجان إلى جوريل ورحبت بها وعانقتها.

لير: "لا اصدق، هل تسلمين عليها وتعانقها يا ريجان؟"

جونريل: "ولماذا لا تعانقني يا سيدي؟ ماذا فعلت وكيف أسأت إليك؟ إن تصرفاتي لا تعتبر خطأ لمجرد أنك تعتبرها خطأ من منظورك الضيق."

لير: "آه، يا لفسوتك وفضاظتك وسوء أدبك!"

ريجان: "أرجوك سيدي أن تتكيف مع الظروف. ارجع إلى أختي واعزل نصف فرسانك وابق معها حتى نهاية الشهر، وبعد ذلك يمكنك أن تأتي للإقامة معي. فالقصر في الوقت الحالي لا يسمح باستقبالك بالشكل المناسب."

لير: "أعود إليها؟ وأطرد خمسين من رجالي؟ لا، لن يحدث هذا حتى لو انطبقت السماء على الأرض. أفضل أن أعيش في العراء مشردا بلا مأوى أرافق الذئاب والبوم ولا أعود معها."

قالت جونريل بحدة وبرود: "افعل ما يحلو لك يا سيدي."

لير: "أتوسل إليك يا ابنتي، لا تدفعيني بالجنون. أنا لن أزعجك بعد اليوم. الوداع! ليكن فراقا دون لقاء."

بدأت الدموع تتزاحم في عين لير فبكى ثم قال بهدوء: "لكنك ما زلت ابنتي من لحمي ودمي، أو بالأحرى مرض أو قرحة في جسدي، ولا حيلة لي سوى الاعتراف به. لن ألعنك. لنترك اللعنة تأتي في وقتها. أصلحي نفسك عندما تستطيعين، راجعي نفسك في الوقت الذي يلائمك. أنا لست في عجلة من أمري، يمكنني التحلي بالصبر. سأقيم مع ابنتي ريجان أنا وفرساني."

ريجان: "لا تتعجل يا سيدي، فكما قلت من قبل إن القصر غير مستعد لاستقبالك بالشكل المناسب. اسمتع لأختي. فأنت قد كبرت في السن ولم تعد قادرا على وضع الأمور في نصابها الصحيح. أما أختي فهي تعرف ما هو الأصلح. ألا يكفي خمسون فارسا؟ لماذا تحتاج المزيد؟ لماذا كثرة المصاريف بدون داع؟ وكيف يمكن لهذا العدد الكبير أن يعيش في وئام في منزل واحد تحت إمرة سيدين. إنه صعب جدا، بل يكاد يكون مستحيلاً."

لير: "هل هذا معقول؟ أتخلّى عن رجالي؟ هذا لن يكون ولن يحدث."

جونريل: "لماذا تظن يا سيدي أن خدمي أو خدمها لن يمكنهم الاعتناء بك بالشكل الكافي؟"

ريجان: "حقا لماذا يا سيدي؟ وإذا فشلوا في أداء واجباتهم تجاهك فيمكننا أن نحاسبهم. إذا كنت ترغب في المجيء إلي الآن، فلا يمكنني أن أستوعب أكثر من خمسة وعشرين فارسا."

لير: "ماذا؟ خمس وعشرون فارسا فقط؟ لقد أعطيتك كل شيء."

ريجان: "نعم، وقد كان هذا منذ زمن بعيد."

لير: "لقد جعلتكم الأوصياء على مملكتي بشرط أن أحتفظ بهذا العدد من الفرسان.
خمس وعشرون فارساً فقط؟ هل هذا ما قلته يا ريجان؟"

ريجان: "نعم، ولا فرد واحد زيادة على هذا العدد."

أمام عناد بناته بدأ لير يتنازل عن كبريائه ويقبل التفاوض في شروطه فقال: "عندما
نقارن القبيح بالأقبح، يبدو القبيح جميلاً."

ثم التفت إلى جونريل قائلاً: "الخمسون ضعف الخمسة والعشرين، وهذا يعني أن
حبك يعادل حبها مرتين."

بعد أن رأت جونريل وريجان خضوع أبيهما لهما بدءاً في الضغط عليه أكثر من
أجل الحصول على تنازلات أكبر، فقالت جونريل: "اسمع يا والدي لماذا تحتاج
خمس وعشرين أو حتى عشرة أو خمسة لرعايتك في منزل حيث يوجد ضعف هذا
العدد من الأشخاص الذين سينفذون طلباتك؟"

ريجان: "ولماذا تحتاج حتى تابع واحد؟"

لير: "نعم؟ لا تجادليني حول الحاجة! حتى أكثر أفقر المتسولين وأشدّهم بؤساً لديهم
أشياء يمكنهم الاستغناء عنها. إذا لم يحتفظ الإنسان بأكثر مما يحتاج، فإن حياته لن
تكون أفضل من حياة حيوان في الغابة. أنت يا سيدتي، إذا كنت ترتدين الملابس من
أجل التدفئة فقط، فلماذا إذن تحتفظين بكل الملابس الأنيقة المتعددة الأشكال
والألوان التي ترتديها، ولكن الحاجة الحقيقية هي ... "

توقف لير في منتصف الجملة ولم يدر ما يقول، ثم وضع يديه على رأسه وقال:
"أيتها السماء امنحيني الصبر. الصبر ... الصبر أيتها الآلهة، إن هذا العجز
البائس قد امتلأ قلبه بالقهر والحزن. لا، لا أريد الصبر. إذا كانت قلوب هذه البنات

قد امتلأت بالقسوة والكراهية ضد والدهن، فاملأى قلبي بالغضب ولا تجعلى دموع الضعف تلتخ خدي بالعار! أيتها البنات، أنتما بلا قلب، سأنتقم من كليكما لدرجة أن العالم بأسره سيسمع بما أفعل. لا أدري ماذا سأفعل بعد، ولكن ما سأفعله سيدمر الأرض ويزلزل الجبال. تعتقدان أنني سأبكي؟ لا، لن أبكي. لدي كل الأسباب للبكاء، لكن سأمزق قلبي ألف قطعة قبل أن أبكي."

خرج لير من القصر في حالة يرثى لها وهو يبكي بشكل مفرط وخرج جلوستر في صحبته ليودعه وكان في استقباله بهلول وكينت بعد أن تم فكّه من التخشيب. كانت السماء تنذر بيوادر عاصفة شديدة.

عاد جلوستر إلى البنات وقال لهن: "الملك في حالة غضب رهيب. سيحل الليل عن قريب والرياح تهب بقوة. ولا يوجد مكان قريب يستطيع أن يأوي فيه الملك."

جونريل: "إنه خطؤه، الرجال العنيدون يجب عليهم أن يتحملوا عواقب حماقتهم. يجب أن نشدد الحراسة حول القصر فلا ندري قد يحرضه أحد من رجاله على ارتكاب أي عمل طائش."

ريجان: "هذا القصر صغير ولا يمكن استيعاب الملك ورجاله، سأستضيفه بكل سرور، لكن ليس مع تابع واحد."

جونريل: "وهذا هو موقفي أيضاً."

العاصفة

بدأت العاصفة في التفاقم أكثر وأكثر حتى أنها كانت تقصف الأشجار دون رحمة وانهمر المطر بكثافة حتى أغرق الطرق والوديان، سارعت الطيور والحيوانات البرية في كل مكان بحثا عن مأوى، حتى الذئب والضباع الجائعة اختبأت في جحورها لتحافظ على نفسها من هذا الريح العنيف والبرد القارس والرعد المدوي والبرق القاصف والمطر الغليظ.

في هذا الجو القاسي سار لير مع كينت وبهلول يبحثون عن مأوى.

كان لير يمتلئ بخليط من الغضب والقهر وخيبة الأمل، فوقف على ربوة مرتفعة وصاح يتحدث مع عناصر الجو كأنه قائد يتحدث إلى جنوده: "اعصفي أيتها الريح بدوامات الغضب، أطلق العنان أيتها السحب لأعاصير السخط، أرسل الصواعق أيها البرق على الأشجار العفنة وطهر الأرض من كل البذور الفاسدة التي ينمو منها الإنسان العاق!"

اقترب منه بهلول وقال له: "لا تقف هنا يا عمي وهيا نبحث عن مكان نختبئ فيه، فإن هذه العاصفة لن ترحم الحكماء ولا الحمقى."

لم يستمع لير إلى بهلول ورفع قبضته إلى السماء وهو يصيح: "أخرج ما بطنك أيها السحاب، اهطلي يا أمطار كالشلال، زلزل الأرض أيها الرعد! وابصق نيرانك أيها البرق! صبو غضبكم على هذه الأرض وعلى هذا العجوز الضعيف المشرد. يا عناصر الطبيعة لن أتهمكم بالظلم فأنتم لستم بناتي، ولم أهبكم حبي ورعايتي، ولم أقسم بينكم مملكتي. أنتم لا تدينون لي بشيء. فها أنا ذا أقف أمامكم بلا قوة ولا سلطة ولا مال ولا فرسان، شيخ عجوز ملأ الشيب رأسه. نفسوا عن غضبكم وصبوا سخطكم على هذا الرأس الأشيب." وبدأ لير يمزق شعر رأسه ولحيته.

قال بهلول:

"اللى مالوش بقى ضهر ياعمى
يبقى الأولى يكون له بيت
وانت الوقتى بقيت شئ تانى
ياما أمرت وياما نهيت
انت ياعمى بقيت مش لاقى
بعد السلطة وبعد الصيت
احنا مافيش بقى فرق ما بينا
بعد العز نغمس زيت
انت آمنت لناس خداعة
دون ماتحرص دون ماوعيت
سقفك لما يكون على راسك
تبقى لعقلك برضه حميت"

كينت: "يا سيدي، دعنا نبحث عن مكان نبني فيه. منذ وعيت على الدنيا لم أر
أمطارا كصفائح الماء المنسكب، ورعدا كصراخ الجبال ورياحا كأمواج البحر. لم
يخلق الإنسان لتحمل مثل هذه المعاناة. حتى الحيوانات الليلية تكره مثل هذه
العواصف وتختبئ في أعماق الكهوف."

صرخ لير: "دع الآلهة العظيمة التي صنعت هذا الاضطراب الهائج تبحث عن
أعدائها! حان وقت العقاب أيها المجرمون، يا من كنتم تظنون أن جرائمكم ستمر
دون حساب أو عقاب حان الوقت لكي تتقوا خائفين مذعورين، أيها القتلة
واللصوص والمحتالون يا من كنتم تجتهدون لإخفاء جرائمكم، حان وقت الثأر
والعقاب ولن ينفعكم التوسل والاستعطاف. أما أنا فقد أخطأوا في حقي ولم أقترف
ذنبا يعادل جرائمهم."

كينت: "سيدي، انظر يا سيدي، هناك كوخ أمامنا، هناك في هذه الناحية."

أمسك لير بيد بهلول وقال: "لقد بدأ عقلي في الذهاب يا ولدي."

اندفع بهلول يعانقه وهو يشعر بالأسى له.

لير: "كيف حالك يا ولدي؟ أنا أشعر بالبرد. هل تشعر بالبرد؟ ما زال هناك جزء من قلبي يستطيع أن يشعر بالأسف لك."

بدأ الأحمق يغني:

"الأحوال فجأة تتبدل

فرق كبير بين ساعة وساعة

برضو الدنيا دي برضو غرورة

يوم فيه رفعة ويوم فيه وضاعة

لها أيام بنموت بشبعنا

لها أيام بنموت ف مجاعة

بس عشان الكل يعدي

نحتاج صبر وسنة شجاعة"

لير: "صحيح يا ولدي! تعال، هيا نذهب إلى هذا الكوخ."

مشى بهلول مع الملك وهو يسلي نفسه ويقول:

"لما الدين بقى بس كلام

خلط نفاق على صلا وصيام

لما التاجر غش بضاعته

لأ ويبيعها بغالى كمان

لما كريم الناس بتهينه

بس تخاف غضب الشتام

لما الضرب يكون بغاوة
ضهرك وشك اى مكان
ناس وياك وتشوه وشك
ضربة تجيلك تحت حزام
مش هايكون فيه امان ف الدنيا
تبقى حياتنا ضلام ف ضلام"

الجنون

كان كينت يقود لير وبهلول نحو الكوخ الذي كان يبدو مهجورا مكسور النوافذ ولا يوجد باب على مدخله، وعندما اقتربوا من الكوخ قال كينت: "هذا هو المكان يا مولاي. أدخل يا سيدي العزيز."

بدأ ذهن لير في الشرود مرة أخرى وقال: "دعني وشأني، أريد أن أبقى هنا."

كانت العاصفة قد بدأت تستعر بقوة من جديد، فقال كينت: "يا سيدي العزيز، ادخل، قسوة المكان المتواضع أرحم مائة مرة من قسوة العاصفة التي لا يمكن أن يتحملها بشر."

لير: "هل تعتقد أنني أكثرث بهذه العاصفة أو أشعر بها؟ عندما تعاني من مأساة هائلة فإن الصعوبات الأخرى تتضاءل أمامها. قد ترغب في تجنب الدبابير ولكن إذا كان الطريق الآخر يتجه بك نحو الدببة الهائجة، فستعود إلى الدبابير وأنت راضي النفس. عندما لا يكون هناك ما يشغل ذهنك، فإنك تكون مفرط الحساسية لكل المضايقات الصغيرة. إن العاصفة التي تدور في ذهني تمحو كل الأحاسيس الأخرى، فلا أستطيع التفكير إلا في الفاجعة الأليمة ... جحود الأبناء. أليس هذا كأن

الفم يعض اليد التي تمتد له بالطعام؟ لكني سأعاقب وأنتقم بشدة. لا، لن أبكي بعد الآن. يطرّدوني في ليلة كهذه؟"

بكى لير بشدة وبكى معه كينت وامتزجت دموعهما بماء المطر المنهمر على وجهيهما. عاد كينت يتوسل إليه أن يدخل الكوخ ولكنه تجاهله واستمر في نجواه قائلاً: "أفي مثل هذه الليلة يا ريجان؟ أفي مثل هذه الليلة يا جونريل؟ والدك العجوز الضعيف، الذي أعطاك حبه الصادق، الذي كلمك حين لم تتكلمين، الذي حملك حين لم تمشين، الذي رعاك حين تمرضين، الذي دفع عنك كل ما تكرهين، الذي منحك كل ما تحبين، والدك الذي أعطاك كل شيء، ولم يبق لنفسه أي شيء؟ الجنون الجنون، إني أسير نحو الجنون. لا، لا أريد التفكير في ذلك، أريد أن أطرّد كل هذه الأفكار من ذهني."

ولكنه عاد يقبض يده ويرفعها نحو السماء وهو يقول: "صبي علي أيتها السماء ماءك، اغسلي عقلي من الغفلة، أزيحي من عيني الغشاوة، نقي قلبي من مشاعر الحب والشفقة، انفضي من جسدي سنين الترف والنعيم، أيتها السماء، صبي سيول الغضب صبا. أيها الرعد، زلزل الأرض ورجها رجا، يا صواعق البرق، طهري الأرض من أدناس البشر، أيتها العواصف، اقصفي كل الأشجار العفنة النتنة التي يخفي مظهرها البهيح وأوراقها الكثيفة ما في باطنها من عث وفساد. يا طوافين البحر، أغرقى بذاءات البشر، يا براكين الجبال، احرقى سفالات الشعوب."

حاول كينت مرة أخرى. "سيدي العزيز، أرجوك ادخل هنا."

وأخيرا بدأ لير يستمع إلى توسلات كينت وقال: "نعم هيا ندخل". ثم أمسك يد بهلول وقال: "ادخل أنت أولا يا بني."

وبمجرد أن دخل بهلول عاد مذعورا وهو يقول: "لا، لا تدخل يا عمو. هناك شبح، شبح في الداخل."

صاح كينت أمام الباب: "من هناك؟ من أنت؟"

خرج إدجار نصف عار وهو يقول: "أنا توم المجنون، الأرواح الشريرة تحميني والرياح البارد يغطيني."

حرق لير في المجنون مندهشا وهو يقول: "هل أعطيت كل شيء لبناتك؟ ولهذا وصلت إلى هذا الحال؟"

ابتعد إدجار عنه وقال: "من يعطي شيئاً لتوم المجنون؟ الذي تحمله الأرواح الشريرة في النار واللهب في الدوامات والمستنقعات فوق الماء وتحت الأرض."

نظر لير إلى إدجار وقال: "هل أعطيت بناتك كل شيء ولم تحتفظ لنفسك بأي شيء. أتمنى أن تصيبهم كل الأوبئة جزاء لهم على جحودهم."

كانت الدموع تغرغر في عيني كينت للحال الذي وصل إليه لير فوضع يده برفق على كتفه وقال: "ليس لديه بنات يا سيدي."

صاح لير في وجهه غاضبا وقال: "كذبت! لا يمكن لأي شيء أن يذل الرجل إلى هذا الحد إلا بناته القاسيات! عندما ينقلب علينا لحمنا ودمنا فإننا نستحق هذا العقاب، لأننا كنا سببا في وجودهم."

بدأ بهلول يشعر بالبرؤس أكثر وقال: "هذه الليلة الباردة ستحولنا جميعاً إلى حمقى ومجانين."

وبهذه الكلمات أثار بهلول شفقة الآخرين فدخلوا جميعا إلى الكوخ.

كان لير منبهرا بإدجار والحالة التي هو عليها فسأله: "ماذا كنت قبل أن تصل إلى هنا؟"

إدجار وحاول أن يتكلم بكلمات غير مفهومة: "كنت رجلا في قبعة، النميمة والخداع، كلمات بلا أعمال وأعمال بلا كلمات. خنزير كسلان، ثعلب مكار، ذئب مخادع، كلب مسعور، أسد مفترس، حذار من الثعلب المكار ولا تتخدع بالملابس الفاخرة." ثم بدأ يقلد الخنزير والكلب والذئب والأسد.

لير: "عندك حق، لا تتخدع بالملابس الفاخرة. أنت في حالك هذا لا تدين لأحد بشيء، فلا تدين لدودة القز بشيء من حريرها، ولا للأبقار بجلدها، ولا للأغنام بصوفها. أنت الإنسان في صورته الأساسية ليس أكثر من مجرد كائن فقير عار دون أي خداع أو تزييف."

نهض لير فجأة وبدأ في خلع ملابسه وإلقائها على الأرض حتى صار عاريا تماما. وبعد محاولات عديدة استطاع بهول وكينيت تهدئة لير وإقناعه بارتداء ملابسه مرة أخرى.

وفي هذا الوقت كان جلوستر يحمل مشعلا ويبحث عن الملك حتى اقترب من الكوخ فخاف بهلول وقال: "هناك نار أمام الكوخ تسير على قدمين."

صاح كينيت: "من هناك؟ وما تبحث؟"

رد جلوستر: "من أنتم هناك؟ وما أسمائكم؟"

رد إدجار: "أنا توم المجنون، الذي يأكل الضفادع والصلاحف والفئران، ويصنع الخبز من أوراق الشجر والحلوى من الطين والتين."

اقترب جلوستر واستطاع أن يرى لير وبهلول وكينت: "يا ربي! أليس لديكم جليس أفضل من هذا؟" وأشار إلى إدجار ابنه الذي لم يمكنه التعرف عليه.

دخل جلوستر الكوخ واقترب من الملك وقال: "مولاي، لقد أصدرت بناتك أوامره بإغلاق القصر وعدم استضافتك في أي مكان، ولكن شعوري بالواجب نحوك لا يسمح لي بطاعة هذه الأوامر. لذلك غامرت بحياتي وجئت للبحث عنك. لقد أصبح البشر منحطون لدرجة أن ينقلب الطفل على أبيه. سأرتب أموري يا مولاي، ثم آخذك إلى مكان آمن حيث ينتظرك الدفء والطعام"

هز لير راسه وقال: "دعني أستشير هذا الفيلسوف أولاً." ثم التفت إلى إدجار وقال: "ما سبب هذا الرعد؟"

إدجار: "الرعد؟ هممم، الرعد هو أبواق الجن وصفير الصافرات السفلى وولولة الولايا وعويل الثكالي".

وبينما يتحدث لير مع إدجار باهتمام، اقترب كينت من جلوستر وقال له: "إن حالته سيئة جداً، لقد بدأ عقله ينهار."

جلوستر: "إن ما تعرض له ليس بالقليل. إن ما فعله بناته يكاد يكون محاولة لقتله. جحود الأبناء لا يحتمله الآباء. أنا نفسي على وشك أن ينهار عقلي. لقد كان لدي ابن وقد تبرأت منه الآن. كان يتآمر على حياتي. لقد أحببته يا صديقي كأكثر ما يحب الأب ابنه. صدقتني لقد كاد الحزن أن يصيبني بالجنون."

كينت: "يا لها من ليلة لم أشهد لها مثيلاً!"

جلوستر: "سأرسل لكم الطعام والشراب ولوازم التدفئة حتى أدبر لكم مكاناً آخر أكثر أمناً وأماناً."

ثم انصرف جلوستر إلى قلعته.

الوشاية

مكث جلوستر أسبوعا يرسل للملك ورفاقه احتياجاتهم من الطعام والشراب ولوازم التدفئة سرا دون أن يعلم أحد.

وبينما هو في قلعته بحث عن ابنه إدموند وأدخله إحدى الغرف وأغلقها بحرص ثم قال: "عزيزي إدموند. هل تعلم أنني عندما طلبت من بنات الملك الشفقة بأبيهم، غضبوا مني وهددوني بالاستيلاء على قلعتي وأمروني ألا أتحدث عنه مطلقا، ولا أشفع له، ولا أساعده بأي شكل من الأشكال. هل يتوقع أحد هذا السلوك من البنت نحو أبيها."

صاح إدموند: "يا لها من وحشية تخالف طبيعة البشر! حتى الحيوانات في الغابة تحافظ على العلاقة بين الأبناء والآباء."

أوما جلوستر برأسه وقال: "إن هذا الشر لن يدوم طويلا، لقد وصلتني رسالة من أحد النبلاء، أخفيتها في غرفة نومي، تقول بأن هناك تمرد من النبلاء وعدم رضا عن الطريقة التي تم التعامل بها مع الملك. كما أن كورديلا بنت الملك الصغرى التي تزوجت من ملك فرنسا وصلها علم بما حدث لأبيها، وقد غضبت لذلك أشد الغضب وجهزت جيشا مع زوجها لوضع الأمور في نصابها، وسوف يتم الانتقام من كل من تسبب في المعاناة للملك. وقد هبط جزء من الجيش بالفعل على ساحل مدينة دوفر. إدموند، يجب أن نقف في جانب الملك حتى لو كلفني ذلك حياتي، فلا بد أن تعود للملك كرامته والانتقام ممن ظلموه وطردوه."

إدموند: "عظيم يا سيدي، هذه أخبار طيبة."

جلوستر: "أرجوك يا إدموند، كن حذرا ولا تجعل أحدا يلاحظ أي شيء."

ثم ذهب جلوستر متجها إلى مخبأ الملك ليوصله إلى مدينة دوفر.

ووقف إدموند في مكانه وهو يفكر في سره: "يجب أن أتصل بالدوق كورنوال على الفور، والرسالة أيضا يجب أن أصل إليها. إن ما سيخسره والذي سيكون مكسبا لي. فلا يعلو نجم الشباب إلا عندما يأفل نجم العواجيز."

بحث إدموند عن الرسالة في غرفة نوم أبيه حتى وجدها فأخذها على التو وذهب بها إلى الدوق كورنوال.

قرأ كورنوال الرسالة ثم لوح بها بيديه وقال: "سأنتقم منه أشد الانتقام، سأجعله عبرة لمن يعتبر."

إدموند: "أنا في أشد الأسى يا سيدي، لأن هناك تعارض بين ولائي لك ومشاعري نحو أبي."

كورنوال: "هذه الرسالة تثبت أنه يتجسس لصالح فرنسا. إنها خيانة عظمى."

صاح إدموند: "أوه يا إلهي! يا ليتها لم تكن خيانة، وبالييتني لم أكن أنا من يكتشفها."

كورنوال: "اسمع يا إدموند، لقد منحتك لقب إيرل مكان أبيك. وأصبحت أنت السيد على القلعة. يجب أن نكتشف مكان والدك حتى نتمكن من القبض عليه."

إدموند: "إن هذا مؤلم جدا بالنسبة لي، ولكن ولائي لك لا يحتمل الولاء لأي شخص آخر."

كورنوال: "كن على ثقة أنك ستجد في شخصي أبًا أكثر حُبًا."

محاكمة البنات

ما زال الطقس السيء يجتاح المكان، فما تهدأ عاصفة حتى تنطلق عاصفة أخرى، وما تهدأ الأمطار حتى تتساقط من جديد. كان المطر يتسرب من خلال سقف الكوخ القديم، ولكن كان هناك ركن جاف يتجمع فيه لير مع إدجار وبهلول وكينت.

كان لير يعاني من قلة النوم ومن نوبات من الهذيان. كان يسير في الليل في الغابة وحده يغني بصوت عالٍ. ويجمع الحشائش والأزهار والنباتات ويصنع منها التيجان والقلادات.

جلس لير في الكوخ صباحاً وهو يرتدي تاجه الجديد الذي صنعه من الأزهار والحشائش ونظر لير أمامه بحزم وصرامة وقال: "سأفعل ذلك، سأحاكمهم الآن."

نظر لير إلى إدجار وقال: "أنت أيها القاضي الحكيم اجلس هنا!" ثم نظر إلى شخصيات وهمية وقال: "والآن أنتم أيها الثعالب، مكانكم في قفص الاتهام."

اقترب كينت من الملك وأشار إلى بعض الوسائد في أحد أركان الكوخ وقال: "هل ترغب في الراحة يا سيدي، إنك لم تنم منذ البارحة."

لير: "لا، أريد محاكمتهم أولاً. اجلبوا الشهود!" وأشار إلى إدجار وقال: "أنت يا سيادة القاضي، اجلس على المنصة!" وأشار إلى بهلول وقال: "وأنت مستشار القاضي، اجلس على المنصة بجواره!"

جلس إدجار في المكان الذي أشار إليه لير وجلس بهلول بجانبه.

إدجار: "دعونا نجري هذه المحاكمة بنزاهة وعدل". ثم بدأ يغني:

"يا قاضي يا قاضي، احكم وأنا راضي
لو انت بطيء، أنا مش قاضي
لا تحكم على الحاضر ولا المستقبل، بس احكم على الماضي."

أخذ لير كيسين من الأكياس القديمة الملقاة على الأرض ووضعهما في منتصف الكوخ، ثم أشار إلى أحد الكيسين وقال: "ابدأوا بمحاكمتها أولاً. هذه هي جونريل. أقسم أمام هذا الجمع الموقر أن أقول الحق، كل الحق ولا شيء إلا الحق. إن هذه السيدة قد طردت أباهما بكل قسوة."

بهلول: "اقتربي هنا يا سيدتي. هل اسمك جونريل؟"

لير: "لا يمكنها إنكار ذلك".

بهلول: "عذرا، كنت أظنك مجرد كيس من الخيش."

لير: "إنها جونريل، خدعتني بالكذب والإطراء، قالت إنها تحبني أكثر من الحياة والحرية، ثم تركتني برأسي العاري ولحيتي البيضاء في ليلة سوداء تضربني العواصف ويغمرنني المطر. تركوني وحدي في الغابة. الغابة، هذا هو المكان الذي اكتشفتهم فيه - هذا هو المكان الذي عرف فيه حقيقتهم. مهما حاولوا إخفاء الشر في داخلهم كان لابد أن يأتي يوم ينكشفون فيه."

نظر كينت بحزن وقال: "إذا أخبرت أي شخص بما يحدث فلن يصدق - لقد كسروا قلبه."

نظر لير إلى الكيس الآخر وقال: "هذه هي البنت الأخرى. إن مظهرها القبيح يدل على قلبها القاسي."

ثم نظر لير إلى إِدْجار وبهلول وقال: "رجاء أن تسمحوا للأطباء بتشريح ريجان ليروا سبب الفساد في قلبها؟ هل هناك أي سبب عضوي يجعل هذه القلوب صلبة ومتحجرة؟"

كانت الدموع تنهمر على خدي كينت وهو يتمتم: "يا أسفي عليك يا مولاي، أين التحمل والانضباط النفسي الذي كنت تتميز به؟"

شعر إِدْجار أن دموعه كانت تهدد بكشفه.

ثم بدأ لير يتقمص شخصية القاضي وأشار إلى شخص خيالي وقال: "ما جريمتك أيها الرجل؟ السرقة؟ قد عفوت عنك. وأنت ما جريمتك؟ الزنا؟ قد عفوت عنك. كل الجرائم تهون أمام جحود الأبناء. دع الزنا يزدهر! فابن الزنا إدموند كان أحسن على أبيه من بناتي اللاتي يرتدين رداء الشرعية. انظر إلى تلك المرأة النقية المظهر التي يوحى وجهها الصافي بالبراءة والرقّة، انظر في الأعماق وسترى الفساد والشر والبذاءة. انظر كيف يوبخ الشرطي هناك ذلك اللص البائس. كلمة في أذنك، غير الأماكن وانظر إن كان بإمكانك أن تميز الشرطي من اللص. إذا رأيت الذئب يحرس الغنم نهاراً فاعلم أنه يحتسي دماءها ليلاً. توقف أيها الشرطي الوغد! لماذا تجلد تلك العاهرة؟ أنت تشتهي أن تفعل بها ما تجلدها من لأجله! ولكن ينكسر رمح العدالة القوي أمام لوحة الخطيئة الذهبية، فتظهر العيوب في الملابس الممزقة، أما العباءات المصنوعة من الفرو فتخفي كل شيء."

صدم إِدْجار من كلام الملك وقال في نفسه: "عندما ينطق الهذيان بالحكمة. تكون قمة العقل في الجنون."

تابع لير. "عندما نولد نبكي لأننا جئنا إلى هذا المسرح الكبير الذي يملؤه الحمقى والمخادعين."

حاول كينت مرة أخرى: "الآن، يا سيدي، استلق هنا واسترح بعض الوقت."

استمع لير له هذه المرة واستلقى على الوسادة وتثاءب ثم ذهب في نوم عميق.

اتجه كينت إلى رفاقه وقال: "لا تصدروا أي ضجيج فهو أحوج ما يكون إلى الراحة."

وبعد فترة قليلة اقترب جلوستر من الكوخ. فنهض إليه كينت ليقابله عند المدخل.

جلوستر: "أين الملك يا سيدي؟"

أشار كينت ناحية لير وهمس: "نائم هنا يا سيدي. أرجوك لا تزعجه فهو يعاني من الأرق والهذيان، ولم يخلد للنوم إلا منذ لحظات قليلة."

أخذ جلوستر كينت من ذراعه وقال: "أتوسل إليك أيها الصديق، لقد سمعت عن مؤامرة لاغتياله. لقد جهزت عربة وبعض الفرسان لمرافقة الملك. يجب عليكم التوجه إلى دوفر في الحال وستجدون هناك كلاً من الترحيب والحماية. إذا تأخرنا نصف ساعة فسيكون هناك خطر على حياته وعلى حياة كل من يدعمه. هيا نحمله ونغادر هذا المكان."

حمل كينت وجلوستر وبهلول الملك وذهبوا به إلى العربة، وتركوا إِدْجَار في الكوخ وحده.

جلس إِدْجَار يفكر في حاله ويقول: "كنت أظن نفسي أشد الناس بؤساً ولكن عندما رأيت لير هان علي حالي. أولئك الذين يعانون وحدهم هم الفريسة السهلة للتعاسة. ولكن يشعر العقل بالارتياح عندما يشارك الحزن والمعاناة مع الآخرين. حتى الملك

القوي يمكن أن ينكسر وينحني بسبب الضغوط والحزن والألم. يعاني الملك من تخلي بناته عنه وأنا أعاني من تخلي أبي عني. ولكن عجلة الحظ تدور من كان في الأعلى صار في الأسفل ومن كان في الأسفل صار في الأعلى. إذا كان الرجل في الحضيض لن تأخذه عجلة الحظ إلا إلى أعلى. دوري يا عجلة الحظ دوري! اخفضي وارفعي! لن أخلص من هذا التنكر إلا عندما يتم كشف الاتهامات الكاذبة وتتضح براءتي عند والدي. وحتى يأتي هذا الوقت، ليس أمامي سوى الاختباء والتخفي."

عقاب الوفاء

طلب الدوق كورنوال من إدموند أن يقود الجيش الذي سيخوض الحرب ضد الجنود الفرنسيين، وطلب منه كذلك أن يغادر قلعة أبيه على الفور لأن العقاب الذي سيلحقه بأبيه لا يليق به أن يراه. ذهب كورنوال وفرسانه للاستيلاء على قلعة جلوستر وأمر بالقبض عليه في التو.

تمكن رجال كورنوال بالفعل من القبض على جلوستر وأوقفوه أمام سيدهم. أمر كورنوال رجاله بربط جلوستر من ذراعيه في أحد الكراسي، وكانت ريجان تسبه وتلعنه وتنتف شعر لحيتة إمعانا في إذلاله.

ثم بدأ كورنوال وريجان في استجوابه.

كورنوال: "ما هي الرسائل التي تلقيتها مؤخراً من فرنسا؟"

ريجان: "الأفضل لك أن تبوح بالحقيقة، فنحن نعرف كل شيء".

كورنوال: "وما هو الاتصال الذي أجرите مع الخونة الذين وصلوا لتوهم إلى المملكة؟"

ريجان: "إلى أين أرسلت الملك المجنون؟ أخبرنا!"

جلوستر: "تلقيت رسالة مكتوبة بهدف الإغلام، وهي من شخص محايد وليس عدوا".

كورنوال: "عجوز ومكار!"

ريجان: "عجوز وكذاب!"

كورنوال: "وأين أرسلت الملك؟"

جلوستر: "إلى دوفر".

كورنوال: "لماذا دوفر؟"

تمتم جلوستر بصوت منخفض: "أنا مقيد بشدة، تكاد ذراعي ينخلع."

صاحت ريجان: "لماذا دوفر؟"

بدا الانهيار على جلوستر وقال: "لأنني لم أستطع أن أرى أظافرك القاسية تمزق قلبه المسكين، ولا أختك الشريرة تنهش بأنيابها في جسده الضعيف. كيف طأوعكما قلبكما على ترك أبيكما في العاصفة عاري الرأس في تلك الليلة السوداء. ولكن انتقام الآلهة لن يتأخر."

هاج كورنوال غاضبا وقال: "بل إن انتقامي أنا لن يتأخر." فأوقعه وهو مربوط على الأرض ووضع كعب حذائه في عين جلوستر ففقاها وسال الدم منها.

صاح جلوستر بينما كان الدم يتدفق. "أوه، الوحشية! يا آلهتي!"

ثم توجه جلوستر إلى الجنود من حوله وقال: "إذا كان أي واحد منكم يخشى على نفسه من ضعف الشيخوخة وغدر الزمان فليساعدني!"

كورنوال: "إنك لم تر آخر عقابي بعد ..."

قاطعه أحد فرسان جلوستر الذي روعه ما حدث لسيدته ووقف أمام كورنوال وقال:
"امسك يدك، يكفي هذا يا سيدي."

صاحت ريجان: "ماذا أيها الكلب!" وحاولت دفعه بعيدًا.

حرق بها الرجل. قال: "لو كنت رجلاً لقطعت يديك بسيفي."

رفع كورنوال سيفه وقال: "أنت وغد وخائن."

رفع الفارس سيفه وبدأ في مبارزة كورنوال. كانت المعركة قصيرة وشرسة، وفي غضون ثوانٍ قليلة كان كورنوال ملقى على الأرض. جرت ريجان إلى فارس آخر وأخذت منه سيفه وهرعت إلى الفارس الواقف أمام كورنوال وطعنته بالسيف في ظهره.

سقط الفارس على الأرض فالتفت إلى جلوستر وقال له: "سيدي، ما زالت لديك عين أخرى لترى انتقام الآلهة من هؤلاء الطغاة."

قالت ريجان وهي في حالة هستيرية: "لن يكون هناك عين أخرى". وذهبت إلى جلوستر وغرست أظافرها في عينه السليمة وخلعتها ورمتها على الأرض.

تأوه جلوستر من الألم الفظيع وصاح: "أين ابني إدموند؟ سيأتي إدموند وينتقم لأبيه."

ضحكت ريجان بصوت عال وقالت: "إدموند؟ هراء! إنه أكثر من يكرهك. إنه هو الذي أبلغنا بخيانتك وأعطانا الرسالة."

بكى جلوستر وقال: "آه يا حماقتي! كيف وثقت به إلى هذا الحد. لابد أن إدجار كان مظلوما منذ البداية. أيتها الآلهة سامحيني على ما فعلت مع إدجار وباركي فيه."

قالت ريجان للخدم: "اذهبوا به وألقوه خارج القلعة. دعوه يشم طريقه كالكلب إلى دوفر."

قام رجلان بفك قيود جلوستر من قيوده واقتاداه للخارج. قام أحدهما بعمل ضمادة لعيني جلوستر من الكتان وبياض البيض حتى يتوقف النزيف. وحملت ريجان زوجها إلى غرفته ولكن إصابته كانت خطيرة، ولم يمكث طويلا حتى مات. لم تحزن ريجان كثيرا على زوجها فقد كانت على علاقة بإدموند ورأت في وفاة زوجها فرصة عظيمة ليخلو لها الجو مع عشيقها.

المجنون يقود الأعمى

بعد أن وضع الخادمان الكمادة على عيني جلوستر، اقتاده أحدهم خارج أسوار القلعة نحو الغابة، كان الرجل يأسف لحال جلوستر ولا يريد أن يتركه حتى يطمئن عليه. رآهما إدجار من بعيد فاقترب يستمع إليهما ليعلم ماذا حدث لأبيه.

أشفق جلوستر على الخادم العجوز وقال له: "أنت رجل طيب، ارجع، ارجع إلى القلعة فإن مساعدتك لن تفيدني ولكنها قد تؤذيكَ."

قال الرجل العجوز: "لكنك لا تستطيع رؤية طريقك."

جلوستر: "ليس عندي طريق فلا أحتاج إلى عينين. إن الرخاء يجعلنا نشعر بالأمان، لكن النكسات تعلمنا حقيقة الأشياء. هل يعتقد أحد أن يخون إدموند أباه ويعرضه لهذا العذاب البشع. آه، أين أنت أيها الابن الحبيب إدجار، الذي غضب عليك أبوك في لحظة حماقة ولم يتحقق من الوشاية الكاذبة، لو أنني أعيش فقط حتى أجذك وأتحسس وجهك بيدي، ساعتها سأشعر أن عياني قد عادتا إلي."

رأى الخادم العجوز إدجار فنادى: "من هناك؟ هل أنت توم المجنون؟"

اقترب إدجار وتمكن من رؤية حالة وجه والده وكان من العسير عليه في هذا الموقف المناسب التظاهر بأنه مجنون.

إدجار: "شفاك الله أيها السيد، ماذا حدث لعينيك؟"

جلوستر: "هل هذا هو الرجل العاري؟"

الخدم: "نعم سيدي."

جلوسر: "حسناء، أرجوك أن تذهب الآن. أحضر بعض الملابس لهذا الشخص المسكين وسأطلب منه إرشادي."

تردد الرجل العجوز وقال: "ولكن يا سيدي، إنه مجنون."

جلوسر: "إنه الوقت المناسب لكي يقوم المجانين بقيادة العميان."

أمام إصرار جلوسر أعطى الخدم بعض الملابس لإدجار وانصرف.

جلوسر: "أيها الرفيق المسكين، تعال هنا يا صديقي."

أراد إدجار أن يكشف عن شخصيته لأبيه ولكنه خاف أن شدة الفرح بعد الكرب الشديد قد تؤدي بحياته فقرر أن يستمر في تمثيل دور توم.

إدجار: "أنا توم المجنون. بارك على عينيك، إنهما ينزفان."

جلوسر: "هل تعرف الطريق إلى دوفر؟"

إدجار: "توم المجنون يعرف كل شيء، الساحرات السبعة والشياطين الخمسة والأرواح الثلاثة. توم المجنون يمكنه أن يسير بك في البرك والأنهار والبحار والجبال".

قام جلوسر بفك صرة مال من حول خصره. قال: "حسناء خذ هذه الصرة. في الطريق إلى دوفر هناك جرف شاهق الإرتفاع يطل على البحر، فقط اصطحبني إلى

أعلى هذا الجرف وسأعطيك مكافأة أخرى. وعندما أصل إلى هناك لن أحتاج إلى
أي رفيق أو دليل."

إدجار: "أعطني ذراعك، توم المجنون سيرشدك إلى حيث تريد."

خيانة زوجية

ذهب إدموند مع جورنيل للتنسيق بين الجيشين في مواجهة جيش فرنسا، وعندما وصلوا إلى قصر أولباني لم يخرج للقائهم، فنادت جورنيل على خادمها أوزويل وقالت: "أين سيدك؟"

أوزوالد: "سيدتي ، إنه في الداخل، لكن أحواله تغيرت كثيرا. عندما أخبرته عن الجيش الفرنسي الذي هبط على الساحل البريطاني، ابتسم، وعندما أخبرته عن العقاب الذي حل بجلوستر نظير خيانتة، حزن بشدة. الغريب أن الأشياء التي يتوقع أن تكون مستهجنة تبدو مرضية له، وما يتوقع أن تكون محل إعجاب، تثير استياءه!"

أظهر وجه جونريل غضبها، ثم التفتت إلى إدموند، قالت له: "إذن يجب ألا تمكث هنا. إنه جبان بطبعه - لا طموح ولا هدف. تول أنت قيادة الجيش يا إدموند، إن قلبي معك ولن يستمر زواجي مع هذا الرجل. إن هذا التابع الأمين سيكون رسولا بيننا. اغتتم الفرصة وستجد حبي الخالص لك." ثم خلعت سلسلة من حول عنقها عليها صورتها، ثم ألبستها إدموند وقبلته وقالت: "هذه السلسلة ستجلب لك النصر وهذه القبلة سترفع معنوياتك إلى السماء! تذكر حبي لك دائما. وداعا!"

أخذ إدموند يدها وقبلها وهمس: "أنا لك حتى الموت."

عاد إدموند إلى العربية. وراقبتها جورنيل حتى اختفت، ثم تنهدت وقالت: "يا له من فرق بين رجل ورجل. هذا هو الرجل الذي يستحق كل ما يمكن للمرأة أن تمنحه من حب وحنان."

اقتحم صوت أوزوالد أفكارها وهو يقول: "سيدتي، ها قد جاء سيدي."

حدقت جورنيل في وجه زوجها وقالت: "كنت أعتقد أن لي من الأهمية ما يجعلك تتعب نفسك باستقبالي!"

صاح أولباني في وجه جورنيل: "آه جورنيل، إنك حتى لا تستحقين الهواء الذي تتنفسه! أنا لا أثق بك. كنت أظن أن الأمر مجرد سوء تفاهم بسيط، ولكن أن تتخلي أن أريك بهذه الطريقة؟ لا يمكن للمرء أن يثق في شخص يفعل ذلك مع والده. المرأة التي تقطع نفسها من شجرة عائلتها يجب أن تذبل وتموت."

جورنيل: "كفاك غباء!"

أولباني: "الحكمة غباء والقذارة ذكاء. ألا تشعرين بالخزي والعار مما فعلت؟ هل أنتما نمرتان أم بنتان؟ أب عجوز ورجل كريم، لقد دفعتموه إلى الجنون بأكثر الطرق همجية وانحطاطاً. إذا لم ترسل الآلهة ملائكتها للانتقام من هذه الجرائم الدنيئة، فما سيحدث بعد ذلك هو أن البشر سيأكلون لحوم بعضهم البعض مثل أسماك البحر."

جونريلا: "أجساد البغال وأحلام العصافير، كل ما تفكر فيه هو التعاطف مع الحمقى والمخرفين. أين استعداداتك العسكرية؟ فرنسا يرفرف علمها على أرضنا. الهزيمة المخزية تهدد بلدك، بينما أنت أيها الأحمق تجلس هناك تبكي وتتحسر."

أولباني: "أنظري إلى نفسك أيتها اللعينة! إن المرأة في مكرها قد تتفوق على الشيطان نفسه!"

جونريلا: "أوه، أيها الأحمق السخيف!"

قاطعهم أحد الخدم قائلاً: "هناك رسول يا سيدتي من أختك!"

أعطى الرسول جونريل الخطاب، فدخلت جونريلا غرفتها لتقرأها وتجهز الرد.

تجهيزات الحرب

اتخذ الجيش الفرنسي من دوفر معقلا له، ولكن ملك فرنسا اضطر أن يعود على وجه السرعة ويترك الجيش تحت قيادة أحد الجنرالات ومعهم زوجته كورديليا. فقد كانت هناك نذر تمرد في القصر وكان الوضع لا يحتمل غياب الملك. سببت هذه التطورات المفاجئة صدمة كبيرة للملكة وللجيش الفرنسي.

وصل لير مع كينت إلى المعسكر الفرنسي، ولم يصل معهم بهلول حيث أصابته حمى شديدة مات على إثرها.

كان لير ما زال يهذي ولا يدرك ما حوله، استقبلته كورديليا في خيمتها وتحطم قلبها عندما رآته في الحالة الرثة التي كان عليها، فاستدعت الأطباء لعلاجها وقالت لهم: "أرجوكم أن تقدموا له كل ما يمكن حتى يستعيد حواسه المفقودة."

قال أحد الأطباء: "النوم يا مولاتي هو العلاج الطبيعي لاضطرابات النفس، ولكن الأرق وقلة النوم تزيد هذه الاضطرابات. سنعد له بعض العلاجات العشبية التي تسكن آلامه وتساعد على النوم."

إخلاص الابن

كان إدجار يعلم أن أباه يريد الانتحار ليتخلص من حياته بعد الانتكاسة التي حدثت والألم الذي يعاني منه، ففكر أن أفضل علاج هو أن يمكنه من أن يخوض تجربة الانتحار ولكن دون أن يعرضه للخطر.

جلوستر: "متى سنصل إلى قمة ذلك التل؟"

إدجار: "أنت تتسلقه الآن. انظر كيف أن الصعود شاق."

جلوستر: "ولكن أعتقد أن الأرض مستوية".

إدجار: "إن المكان شديد الانحدار بشكل مخيف. اسمع، هل تسمع صوت البحر؟"

جلوستر: "لا أسمع شيئاً."

إدجار: "حسنًا، أظن أن حواسك الأخرى بدأت تضعف بسبب الألم في عينيك. إن الارتفاع من هنا مذهل ومرعب، يبدو الصيادون على الشاطئ مثل الفئران، لن أنظر للأسفل مرة أخرى فإن النظر يجعلني أشعر بالدوار بسبب الارتفاع الشاهق."

جلوستر: "حسنًا، ساعدني أن أقف حيث تقف أنت."

إدجار: "أعطني يدك. أنت الآن قمة الحافة."

جلوستر: "الآن اترك يدي." ثم فك جلوستر كيسًا صغيرًا من حول خصره، وقال "خذ يا صديقي - هذا كيس فيه جوهرة يمكنها أن تغير حياة رجل بائس وتجلب له الثروة والمتعة. ابتعد وقل وداعاً."

إدجار: "حسنًا، إلى اللقاء يا سيدي الطيب."

ركع جلوستر على ركبتيه ورفع يديه إلى السماء. "أنتم الآلهة العظيمة! إنني أنبذ هذا العالم وأضع نهاية لمعاناتي الجسيمة. إذا كان إدجار على قيد الحياة، فلتباركيه!"

وقف جلوستر متمائلاً للحظة، ثم اتخذ خطوة وقام بحركة في الهواء كما لو كان يقذف نفسه من التل، وسقط على الأرض.

كان من العجيب أن المرء يمكنه أن يخدع نفسه بالموت عندما تتبخر إرادة الحياة.

رقد جلوستر ساكناً ولم يتحرك، حتى أن إدجار ظن للحظة أنه ربما قد مات بالفعل. ولكنه اقترب منه وهزه بيديه فبدأ يتحرك.

بدأ إدجار يتقمص شخصية صياد وقال: "من أنت يا سيدي؟"

جلوستر: "اذهب بعيداً ودعني أموت."

إدجار: "إن ما حدث يعتبر معجزة. كيف تسقط من هذا الارتفاع الشاهق وما زلت حياً تتنفس وتبدو بصحة جيدة. هل تشعر بكسور في جسمك؟ هل تقدر على الوقوف؟"

جلوستر: "لا أدري."

بدأ إدجار في مساعدته على الوقوف على قدميه وقال: "أعطني ذراعك. حاول الوقوف هل تشعر بساقيك؟ آه، أنت واقف على قدميك! لا أكاد أصدق عيني. ولكن ما الذي دفعك للسقوط من هذا المرتفع؟"

جلوستر: "أحياناً نحاول أن نتخلص من معاناتنا ولكنها تظل تطاردنا ولا تريد أن تتركنا. والآن يا سيدي العزيز، من أنت؟"

إدجار: "أنا صياد فقير جنى عليّ سوء الحظ وعانيت من مأس كبيرة، لذلك فأنا أميل للشفقة على البؤساء مثلي. أعطني يدك، سأخذك إلى مأوى نبئت فيه سوياً."

جلوستر: "شكراً جزيلاً لك. لم يعد لدي ما أكافئك به ولكن أدعو لك أن تنال الفضل من السماء."

وفي هذا الوقت كان أوزوالد في طريقه إلى الجيش البريطاني في دوفر ليسلم رسالة من جونريل لعشيقها إدموند، وكانت لديه تعليمات بالقضاء على جلوستر إذا عثر عليه حتى لا يؤلب باقي النبلاء ضدهم. كان أوزوالد يركب حصانه وعندما رآهم توجه نحوهم ثم صاح قائلاً: "من هذا؟ الرجل الأعمى؟ هناك مكافأة على رأسك."

تجاهله إدجار وأخذ بكتف أبيه ليمضي به في الاتجاه الآخر. ولكن أوزوالد نزل من على حصانه وأخرج سيفه ووقف أمام جلوستر وقال: "قل صلواتك أيها العجوز الخائن، لقد حان أجلك."

كان جلوستر سعيداً بأن يجد نهاية لمعاناته بعد أن فشلت محاولته في الانتحار فمزق مقدمة ثوبه ليكشف عن صدره وقال: "الآن أيها الصديق، ضع بعض القوة في يدك الرحيمة."

وقف إدجار أمام والده وأخذ بذراعه وبدأ في إبعاده.

خاطبه أوزوالد بغضب: "ماذا تفعل أيها الفلاح الوقح؟ تدافع عن خائن؟ ابتعد قبل أن تجلب على نفسك نفس المصير."

إدجار: "لا تقترب من الرجل العجوز وإلا علمتك الأدب بعصاي هذه." ورفع عصا كان يحملها.

رفع أوزوالد سيفه وهجم على إدجار بقوة فصد إدجار الهجوم بعصاه، حاول أوزوالد مرة أخرى فتفاداه إدجار ثم وجه له ضربة قاتلة على رأسه فسقط على الأرض والدم يسيل بغزارة. عندما اقترب منه إدجار عرف أنه أوزوالد خادم جونريل.

شهق أوزوالد وقال: "لقد قتلنتي أيها الشرير، خذ المال من حقيبتني ولا تنس أن تدفن جسدي وخذ الرسالة التي في جيبني وأعطاها إلى القائد إدموند. ابحث عنه وستجده في المعسكر الإنجليزي. يأتي الموت دون أن نحسب له حساب! عشت خادما ومت خادما ولم أستمتع يوما بالثروة التي جمعتها."

جلوستر: "هل مات؟"

إدجار: "نعم. اجلس واسترح يا أبي. دعنا نلقي نظرة على هذه الجيوب: الرسالة التي ذكرها قد تفيدني في شيء."

بدأ بالبحث في الجيوب فوجد الرسالة. وكسر الشمع وفتح الخطاب ثم بدأ في قراءة الرسالة: "أقسم بحبنا الحميم وعهدنا المتبادل أنني لن أكون لأحد سواك، بعد أن تنتصر في المعركة سيكون كل شيء رهن إشارتك، هناك العديد من الفرص للتخلص منه. الحياة معه كالسجن البغيض. أنقذني من هذه العلاقة المقيتة، وخذ أنت المكان الذي تستحقه. زوجتك في المستقبل وحببتك إلى الأبد، جونريل."

ثم علق إدجار: "أوه، شهوة وخيانة بلا حدود! مؤامرة ضد زوجها الفاضل وتريد أن تستبدله بأخي! عندما يحين الوقت، سأعرض هذه الرسالة المشينة على الدوق، وعندها قد ينقلب السحر على الساحر."

بعد أن اطمأن إدجار أن أباه في حالة أكثر استقرارا كشف له عن شخصيته الحقيقية، فانهار جلوستر يبكي بلا دموع وجثى على ركبتيه أمام ابنه يطلب منه الصفح. فأخذ إدجار بيده وقبلها وطلب منه البركة وقال إنه نفسه كان مخطئا عندما انخدع بمكيده أخيه. وبعد أن انتهى من دفن جثمان أوزوالد اصطحب أبيه وذهبا معا إلى دوفر.

إخلاص البنت

وفي اليوم التالي من وصول الملك إلى دوفر، طلبت كورديليا من الخدم تغيير ملابس الملك وهو نائم ثم ذهبت إلى خيمته للاطمئنان عليه وسألت الأطباء عنه فأخبروها أنه ما زال نائماً، فجلست تدعو له وتقول: "أيتها الآلهة الطيبة، ارحموا هذا الشيخ النبيل والملك العادل والأب الكريم. عالجوا هذا الشرخ الذي زلزل روحه الطيبة. وهدئوا من روع هذا العقل الذي عصفت به المحن والصدمات."

ثم طلب الأطباء من كورديليا الإذن بإيقاظ والدها فطلبت منهم أن يفعلوا ما يرونه مناسباً وملائماً. فأحضر الأطباء بعض الموسيقيين الذين بدأوا في عزف موسيقى هادئة، وركعت كورديليا بجانب أبيها وقالت: "والدي العزيز، أدعوا الآلهة أن يجعلوا في قبلي هذه علاجاً لجروحك العنيفة وتخفيفاً لكل الآلام التي عانيت بها."

كان كينت واقفاً في الخيمة فقال: "أميرة رحيمة، قلبها صاف وحبها خالص."

كورديليا: "حتى لو لم تكن والدهم، كان يجب أن تثير هذه الشعيرات البيضاء الشفافة في قلوبهم. هل من المعقول أن يترك هذا الوجه في العراء تهاجمه الرياح العاتية؟ يزمجر له الرعد الهادر؟ وتبرق فيه ومضات البرق الخاطفة؟ هل من المعقول أن يترك هذا الرجل وحيداً في منتصف الليل بلا سقف ولا غطاء؟ لو أن كلباً مسعوراً عضني لما رضيت له بهذا المصير ولاستضفته في مثل هذه الليلة أمام ناري. أيها الأب المسكين، كيف استطعت أن تقضي هذه الليالي السوداء تسير في الطين وتنام فوق القش النتن؟ ليس من المدهش أن يفقد أي إنسان عقله في مثل هذه الظروف بل قد يفقد أيضاً حياته. إنه يستيقظ، هل أتحدث معه؟"

الطبيب: "نعم يا سيدتي، من الأفضل أن تفعلي."

قامت كورديليا بتمشيط شعر لير بيدها ثم قالت بهدوء: "كيف حال مولاي؟ كيف حال جلاتك؟"

تأوه لير وفتح عينيه، ثم تأوه مرة أخرى، وقال: "أيتها الروح الطيبة أنت تظلميني بإخراجي من القبر. أنت روح من الجنة، لكنني مقيد بعجلة في النار، في قلب الجحيم. دموعي تحترق مثل الرصاص المنصهر."

واصلت كورديليا تمشيط شعره بأصابعها وقالت: "سيدي، هل تعرفني؟"

لير: "أنت روح، لا أنت ملاك."

نظرت كورديليا حولها إلى الطبيب، وقالت: "هل ما زال غائبا عن الوعي؟"

الطبيب: "إنه لم يستيقظ بالكامل بعد، قد يحتاج بعض الوقت."

بدأ لير يفتح عينيه وينظر حوله ويقول: "أين أنا؟ هل هذا هو ضوء النهار؟ هل ما زلت حيا؟ وما هذه الملابس التي أرتديها؟"

نادت كورديليا: "انظر إليّ يا سيدي."

جلس لير وانزلق بقدميه ببطء من على السرير إلى الأرض. ثم وقف مرتعدًا ونظر إلى كورديليا.

كورديليا: "أرجو منك أن تمنحني مباركتك."

جثى لير على ركبتيه.

كورديليا: "لا يا سيدي. لا ينبغي أن تركع!"

لير: "أتوسل إليك أيتها السيدة النبيلة، لا تسخري مني. فأنا رجل عجوز مخرف - تجاوزت الثمانين من العمر. ولكي أكون صادقًا معك، أنا لست في كامل قواي العقلية. ولكن أظن أنك ابنتي، كورديليا."

سالت الدموع على خدي كورديليا وألقت بنفسها بين ذراعي والدها وقالت: "نعم يا أبي، أنا ابنتك، أنا كورديليا!"

لير: "أرجوك لا تبكي. إذا أعطيتني سما بيديك فسأشربه وأنا راض. أعلم أنك لا تحبيني ولكن لديك عذرك، أما أخواتك فقد اخطأوا في حقي بدون عذر."

كورديليا: "لا عذر ولا سبب يمكن أن يقلل من حبي لك يا سيدي."

لير: "هل أنا في فرنسا؟"

كورديليا: "أنت في مملكتك يا مولاي."

قال لير: "لا تسخري مني".

وضع الطبيب يده على كتف كورديليا التي كانت ما تزال تبكي وقال: "اطمئني يا سيدتي. لقد هدأ الاضطراب النفسي الذي كان يعاني منه. ومع ذلك فمن الخطر جعله يتذكر الأشياء التي لا يستطيع تذكرها الآن. يحتاج مزيدا من الوقت حتى يستقر."

أخذت كورديليا ذراع والدها وقالت: "هل تحب سموك أن تتمشي قليلا؟"

لير: "نعم ولكن عليك أن تتحلّى بالصبر معي. من فضلك يا سيدتي، اغفري لي حماقتي فأنا رجل عجوز وطائش."

كورديليا: "لا تنزعج يا سيدي، عن قريب ستنتهي كل الآلام."

وفي هذا الوقت كان كلا الجيشين يقوم باستعداداته. فنتيجة هذه المعركة ستكون حاسمة في حياة كل الأطراف.

لئيم بين عشيقتين

بعد وفاة الدوق كورنوال كان الدوق أولباني هو القائد الأعلى للقوات البريطانية كان إدموند يعمل تحت إمرته يقود قوات كورنوال وينفذ التعليمات والخطط الصادرة من أولباني. وكان المعسكر البريطاني يتمركز في مكان بالقرب من دوفر.

ومع احتدام الحرب كانت المنافسة أيضا مشتتة بين ريجان وجونريل في الاستيلاء على قلب إدموند.

في الخيمة الرئيسية لقيادة الجيش كانت ريجان بمفردها مع إدموند فاقتربت ووضعت يدها على ذراعه وقالت: "الآن يا عزيزي، أنت تعلم أنني وهبت قلبي لك. قل لي الحقيقة، الحقيقة الكاملة - هل تحب أختي؟"

إدموند: "أحبها طبعًا حبا شريفاً."

رجعت ريجان إلى الوراء ونظرت إليه من تحت رموشها وقال: "ولكن هل سبق لك أن خلوت بها كزوج مع زوجته؟"

ابتسم إدموند وقال: "القلق يأخذ تفكيرك إلى بعيد."

ريجان: "لا أدري، لدي إحساس قوي أنك كنت حميمًا معها - وأنت ذهبت إلى أبعد الحدود."

إدموند: "لا، بشرفي يا سيدتي!"

كان هناك قرع طبول، فقال إدموند: "إنها قادمة مع زوجها الدوق."

عندما دخلت جونريل مع زوجها وبعض الضباط، كانت قلقة بشأن ارتباط إدموند بأختها لدرجة أنها كانت تفضل أن تخسر المعركة على أن تقف ريجان بينها وبين إدموند.

انحنى أولباني لريجان وقال: "أختنا المحبة للغاية ، تحياتي". ثم انحنى إلى إدموند وقال: "سيدي، سمعت أن الملك ذهب إلى ابنته، مع الآخرين الذين اضطرتهم الظروف القاسية إلى ذلك. وبصراحة شديدة فأنا أشارك في القتال فقط لأن فرنسا تغزو بلدنا، وليس لمواجهة الملك والآخرين الذين لديهم مظالمهم العادلة."

انحنى إدموند وقال: "سيدي، أنت تتحدث بنبل."

ريجان: "ولماذا نتحدث عن هذا الموضوع الآن!"

جونريل: "يجب أن نتحد ضد العدو. هذه الخلافات الخاصة ليست ذات صلة هنا."

أولباني: "إذن دعونا نتحاور مع المستشارين العسكريين ذوي الخبرة حول تكتيكاتنا".

إدموند: "التقديرات أن العدو في مرأى البصر. هذه الوثيقة تحتوي تقدير جواسيسنا لقوتهم وأعدادهم."

قال أولباني وهو يغادر: "سنكون مستعدين".

ذهب إدموند لحشد جيشه وكان قلبه مطمئنا لكسب المعركة خاصة بعد رحيل ملك فرنسا. لكن ما كان يشغل تفكيره في هذه اللحظة هي المعركة الداخلية. فقد وعد كلا من الأختين بالحب وكانت كل واحدة منهما مرتابة من الأخرى. كان السؤال الذي

يحيره هو أيهما يأخذ؟ لا يمكن الاستمتاع بأي منهما إذا بقيت الأخرى على قيد الحياة. فإذا أخذ الأرملة، فستغضب أختها، وإذا اختار المتزوجة فسيبقى عشيقا في الظل. كان وجود الزوج مهما كرئيس صوري للمعركة. ولكن عندما تنتهي فيجب أن يجد طريقة سريعة للتخلص منه. أما بالنسبة للصفح الذي ينويه أولباني عن لير وكورديليا فهذا لن يكون في المصلحة أبدا.

الهزيمة في المعركة

أقام إدجار مع أبيه في كوخ آمن في دوفر بعيدا عن ساحة المعركة. دقت طبول المعركة واشتبك الجيشان، وذهب إدجار من بعيد يتعرف على الأخبار. قاتل الطرفان بشدة حتى أنه كان يمكن لسكان القرى القريبة سماع أصوات السيوف والصراخ والأبواق وشم رائحة الغبار المتصاعد.

وبعد فترة عاد إدجار إلى أبيه وصاح: "هيا بنا نذهب من هنا، هيا بسرعة! لقد خسر الجيش الفرنسي وتم أسر الملك لير وابنته كورديليا. أعطني يدك. هيا!"

كانت الهزيمة صدمة كبيرة لجلوستر الذي كان يأمل من أعماقه أن تنتقم السماء من الطغاة ويعود الحق إلى أصحابه، فأصابه اليأس الشديد وبدأ يحفر بقدميه بكعبيه في أرض الكوخ وقال: "لا يا سيدي، هذا المكان يصلح للموت مثل أي مكان آخر."

إدجار: "ماذا؟ الإحباط واليأس مرة أخرى؟ يجب على الرجال أن يتحملوا معاناة الموت كما تحملوا معاناة الحياة. الإرادة هي كل شيء. هيا!"

جلوستر: "هذا صحيح، معك حق." ثم وضع يده في كتف إدجار وغادرا المكان. في المعسكر البريطاني كانت الطبول تفرع والأعلام ترتفع احتفالاً بالنصر. ووقف لير مع ابنته تحت حراسة مشددة بعد أن تم أسرها. أمسكت كورديليا بيد والدها وقالت: "لسنا أول من يخسر في الحرب من أجل قضية عادلة. لو كنت أنا وحدي لواجهت سوء حظي بكل رضا، ولكن أنا حزينه من أجلك. هل تريد رؤية هؤلاء البنات؟"

اهتز لير بالعاطفة. صرخ "لا، لا، لا. تعال، لنذهب إلى السجن نحن الاثنين وحدنا، سنغني مثل الطيور في قفص. عندما تطلبين مني البركة، سأركع على ركبتي

وأطلب منك المغفرة. سنصلي ونغني معا، سنعيش في الذكريات ونحكي لبعضنا البعض قصص الماضي ونبكي ونضحك، سنتفكر في الدنيا معا ونحل ألغاز الوجود كما لو كنا رسل الآلهة على الأرض. الآلهة أنفسهم يتعجبون من التضحيات التي قدمتها يا كورديليا".

ألقت كورديليا نفسها في حضنه وبكت، فقال لير: "هل جعلتك تبكين؟" قام بتمشيط شعرها. "من يفرق بيننا الآن؟ حتى إذا هبطت الصواعق من السماء فلن تستطيع أن تفرق بيننا. امسحي عينيك! سوف يقضي عليهم الدهر قبل أن يجعلونا نبكي. سنراهم يتضورون جوعا قبل أن يأتي هذا اليوم."

دخل إدموند المعسكر وطلب من بعض الضباط أن يأخذوا الملك وابنته إلى السجن حتى يتم محاكمتهم وتقرير مصيرهم. ثم اقترب إدموند من أحد الضباط وخفض صوته وهمس له أن يتبعهم إلى السجن ويشنقهم ويجعل الأمر يبدو على أنه انتحار بسبب اليأس، ووعدته بترقية ومكافأة كبيرة.

صراع الأختين

أعلنت الأبواق وصول أولباني وجونريل وريجان فانضموا إلى إدموند ودخلوا جميعاً إلى الخيمة الملكية وطلبت جونريل من الخدم إحضار المشروبات والمرطبات احتفالاً بالنصر.

اقترب أولباني من إدموند وخاطبه رسمياً: "سيدي ، لقد أظهرت شجاعة وبسالة كبيرة اليوم وقد حالفنا الحظ في هذا الانتصار العظيم. وقد وقع في أسرنا اليوم من كانوا بالأمس أهلنا وحلفاءنا، لذلك أطلب منك أن تعاملهم بما يتطلبه كلا من الدواعي الأمنية وكذلك صلات القرابة."

إدموند: "سيدي، أعتقد أنه من المناسب أن ننفي الملك في مكان بعيد يخضع للحراسة المشددة. فما زال يحمل اللقب وهناك من يدين له بالولاء سرا ووجوده حرا سوف يؤلب عامة الناس علينا وقد تنقلب أسلحة جنودنا ضدنا. ولنفس الاعتبارات ينبغي أن تعامل كورديليا نفس المعاملة."

أولباني: "انظر هنا يا سيدي. أنا أعتبرك هنا مرؤوسا، ولذلك فإن هذا الأمر ..."

وقبل أن ينهي الجملة قاطعته ريجان قائلة: "إن أمر رتبته متروك لنا لنقرر فيه. لقد قاد جيوشنا وتصرف نيابة عن رتبتي وشخصي. وبهذه الصفة يمكنه أن يبيت في الأمور بشكل مساو لك."

غارت جونريل من إغداق أختها الرتب على إدموند وقالت: "ليس تماما فهذا الفارس النبيل قد تم ترقيته بسبب جدارته ولم يكن ذلك هبة من أحد."

ريجان: "ولكن بتصرفه نيابة عني، فإنه يحتل مرتبة أعلى."

أولباني: "سيكون هذا هو الحال فقط لو كان زوجك."

ريجان: "كلمة عابرة قد تكون نبوءة للمستقبل."

جونريل: "ريجان، لا بد أنك تمزحين!"

ريجان: "لا يا سيدتي، ليس هذا الوقت ولا المكان للمزاح." ثم استدارت إلى إدموند وابتسمت له وقالت: "سيدي الجنرال، خذ ميراثي وجندي وأسراي وافعل بهم ما تشاء. دع العالم يشهد أنني بهذا أعلن أنك زوجي وسيدي ومولاي."

جونريل: "هل تتوين حقا الزواج منه؟"

قال أولباني موجهًا حديثه لجونريل: "ليس هذا من شأنك."

إدموند: "ولا من شأنك أيضا يا سيدي!"

ثار أولباني غاضبا وقال: "لا أيها الوغد، إنه شأني!"

رأت جونريل أن الأمور بدأت تخرج عن السيطرة فقالت: "دقيقة واحدة أيها السادة، لقد حققنا انتصارا عظيما منذ ساعات، ولا يصح أن نترك سوء الفهم يفسد المودة بيننا، دعونا ننحي الخلافات جانبا، فهذا وقت الاحتفال والطعام والشراب!"

وافق الباقون على كلام جونريل وخرجوا للاحتفال مع الفرسان والقادة، وفي خلسة دست جونريل لأختها السم في شرابها.

وفي هذا الوقت حضر إدجار في صورة فارس ممتطيا حصانا وقد أخفى وجهه فاقترب من إدموند أمام باقي الفرسان وألقى قفازه أمام قدم إدموند وقال له أنت خائن وخسيس، إذا أردت أن تدافع عن شرفك فلتبارزي سيفا بسيف. وافق إدموند على التحدي وجهز نفسه للمبارزة، وقبل أن تبدأ المبارزة ذهب إدجار إلى الدوق أولباني وأعطاه الرسالة التي وجدها مع أوزوالد وطلب منه ألا يفتحها إلا عندما تنتهي المبارزة.

بدأت ريجان تشتكي من مغص شديد في بطنها فنظرت إليها جونريل برضا بعد أن تأكدت أن السم بدأ يسري في جسدها.

أعلنت الأبواق بداية القتال ووقف الإخوة في مواجهة بعضهم البعض، وكل منهما يحاول توجيه ضربة قاتلة للآخر بسيفه العريض. لقد كانت معركة طويلة واختبارا

شاقا وبدا كلاهما في شدة الإرهاق، ولم يكن أي منهما قادراً على تحقيق أي ميزة، فقد كانا متطابقين بشكل متساوٍ في الطول والقوة والخفة والسرعة. لكن في النهاية تمكن إدجار من وضع قدمه خلف ساق إدموند ودفعه، حيث استلقى على ظهره، فوجه له ضربة بسيفه الثقيل الذي نزل واخترق لوحة صدره.

بدأ أولباني في فتح الرسالة وقراءتها بينما جرت جونريل وركعت بجانب إدموند وقالت وهي تبكي: "هذه خدعة يا سيدي. وفقا لقواعد الفروسية أنت لست ملزماً بالرد على عدو مجهول. أنت لست مهزوماً ولكنك مخدوع مخدوع!"

ذهب أولباني إليها وصرخ في وجهها قائلاً: "أغلق فمك أيتها الخائنة. أن دليل خيانتك معي." وأشار إلى الرسالة. حاولت جونريل انتزاعها منه فسحب يده بعيداً عنها وقال: "إذن أنت تعرفين هذه الرسالة وتعرفين ما فيها؟"

جونريل: "من حقي أن أفعل ما أشاء، ليس لك سلطة علي." ثم جرت إلى الخيمة الملكية

أمر أولباني أحد ضباطه بأن يتبعها ويبقيها تحت الملاحظة.

كان إدموند غارقاً في دمائه فأدار رأسه إلى الفارس الغامض وقال: "انتهى الأمر بالنسبة لي الآن. ولكن من أنت حتى تتفوق علي؟ إذا كنت نبيلاً فأنا أسامحك."

إدجار: "أنا لست أقل نبلاً منك يا إدموند. بل أكثر نبلاً وأعلى رتبة. اسمي إدجار وأنا ابن والدك. إن ظلمك له قد كلفه عينيهِ. إن الآلهة العادلة قد تستخدم رذائلنا في أن نعاقب أنفسنا بأنفسنا."

شهق إدموند: "أنت على حق. لقد أكملت عجلة الحظ دورانها وصرت في القاع مرة أخرى."

صافح ألباني يد إدجار وقال: "عرفت من الطريقة التي تمشي وتتكلم بها أنك من أصل نبيل. لقد كسر الحزن قلبي عندما علمت بما حدث لوالدك."

قال إدجار: "وأنا أعلم أنك أمير طيب القلب وكريم."

ألباني: "أين أخفيت نفسك؟ وكيف عرفت عن معاناة والدك؟"

إدجار: "بعد مكيدة أخي لي، لم يكن أمامي سوى الهرب إلى الغابة يا مولاي. كم هي رائعة هذه الحياة عندما تعلمنا كيف نتعايش مع الموت كل ساعة فتتولد الشجاعة من شدة الخوف والحكمة من شدة الجنون والقوة من شدة الضعف. لقد تعلمت أن أنتكر في شخص رجل مجنون وأرتدي ملابس تحتقرها حتى الكلاب. وفي هذه الملابس قابلت والدي بعد ما أصابه من ألم. وأصبحت مرشدًا له وقدته إلى الأمان، وتوسلت إليه أن يهبني بركته، ورفعت معنوياته بعد أن كان يعاني من اليأس والإحباط."

ألباني: "إن ما أصاب والدك يثير الحزن والرثاء، من الواضح أن المعاناة التي عشتها قد زادت قوة وصلابة."

توقف الحديث بوصول الضابط الذي أرسله ألباني للتحفظ على جونريل وفي يده سكين ملطخ بالدماء وهو يصيح: "إنها ماتت! قتلت نفسها!"

ألباني: "من التي ماتت وما هذه السكين؟ تكلم يا رجل."

الضابط: "سيدي، إنها مولاتي، زوجتك. وقد اعترفت قبل موتها بأنها قد سممت أختها."

أولباني: "أحضروا الجثث، حية أو ميتة! هذا هو حكم السماوات. لا أستطيع أن أشعر بالشفقة نحو من عاش بالخيانة والقسوة ضد أقرب الناس إليه."

الملك يقاوم حتى النهاية

قدم كينت من بعيد فقال إدجار: "سيدي، هذا كينت قد حضر. لقد تنكر وتبع الملك بعد طرده وخدمه كأنه عبد مخلص."

حضر كينت وقال: "جئت لأقول وداعاً لملك ولسيدتي. أليسوا هم هنا؟"

فتح أولباني ذراعيه على مصراعيهما ورحب بكينت: "وقال أهلا بك أيها السيد الكريم."

ثم وجه حديثه إلى جميع الحاضرين وقال: "اللوردات والأصدقاء النبلاء، تعرفون أن الملك قد تعرض للظلم الشديد والجحود القاسي من بناته، وقد انتقمت السماء منهما. وسنقدم كل ما في وسعنا لإزالة آثار هذا الخراب. وإني أعلن هنا أنني أتخلى عن السلطة المطلقة لجلالة الملك خلال الفترة المتبقية من حياته. أما أنتما - مشيرا إلى إدجار وكينت - فسوف تشغلان مكانكما الصحيح، وترد إليكما جميع الأراضي والألقاب التي انتزعت منكما."

ثم طلب من بعض الضباط إحضار الملك وكورديليا معززين مكرمين، فطلب كينت وإدجار أن يذهبا معهم فأعطاهم أولباني الإذن.

وفي هذه الأثناء كان الضابط الذي أرسله إدموند لشنق الملك وابنته قد بدأ في تنفيذ مهمته، فدخل عليهما الحبس وبدأ بكورديليا يحاول شنقها بحبل كان معه. تصدى له

لير ووقف يدافع عن ابنته فدفعه الضابط وأوقعه على الأرض واستمر في شنق كورديليا، وقف لير ثانية وحاول أن ينقذ ابنته فدفعه الضابط مرة أخرى، وقف لير للمرة الثالثة ونزع السيف من غمد الضابط وطعنه به فأرداه قتيلا، ولكن كورديليا كانت قد توقفت عن التنفس.

دخل الضباط ومعهم كينت وإدجار الزنزانة فوجدا الضابط غارقا في دمائه في ناحية وكورديليا طريحة على الأرض وبجوارها لير جاثيا على ركبتيه. انبهر الضباط كيف لهذا الرجل المسن أن يجد من القوة والعزيمة ما يمكنه من قتل ضابط في عنفوان شبابه.

كان لير يعوي ويتأوه ويقول: "كورديليا! كورديليا! تنفسي كورديليا ولا تستسلمي." ولكن كورديليا كانت راقدة بلا حراك.

نظر كينت بعاطفة وحزن شديد وقال: "كما لو أن نهاية العالم قد حانت. إن السماء قد تسقط على الأرض الآن وينتهي كل شيء في لحظة."

نظر لير على الأرض ووجد قشة صغيرة فوضعها تحت أنف كورديليا وصاح: "القشة تتحرك! إنها على قيد الحياة! إن الحظ السعيد قد قرر أن يقف في جانبي وأن يزيل عن كاهلي كل الأحزان التي سبقت."

ركع كينت بجانب الملك المنكوب وقال: "يا سيدي العزيز! هدى من روعك!"

نظر إليه لير بخوف في عينيه وقال: "ابتعد من فضلك! من أنت. أنا الآن عجوز ونظري لم يعد جيدا كما كان."

حاول إدجار الشرح فقال بلطف: "إنه كينت النبيل، صديقك يا مولاي."

نظر لير إلى كينت وقال: "هل أنت كينت؟ أنت رجل نبيل وصديق مخلص." ثم نظر إلى كورديليا مرة أخرى وقال: "القتلة! الخونة! إلى الجحيم جميعاً! كان بإمكانني أن أنقذها، ولكنني عجوز وأمراضي تعيقني. الآن ذهبت إلى الأبد!" ثم عانق جثة ابنته الميتة وقال: "كورديليا، كورديليا! ابقى لحظة!" وضع أذنه على شفتيها واستمع. "ها! ماذا قلت؟ كان صوتك دائماً ناعماً ولطيفاً ومنخفضاً!"

كينت: "سيدي لقد انتقمت الآلهة لك. إن بناتك الكبرى قد جلبوا على أنفسهم التعاسة ولقوا نهاية بائسة."

لم يكن لير يستمع وكان لا يزال يحدق في كورديليا: "نعم، أعتقد ذلك."

حمل لير جسد كورديليا بين ذراعيه ومشى بها خارج السجن والضباط وكينت وإدجار يتبعونه. كان لير ينظر إلى السماء وهو يصيح كأنه يعاتب الآلهة: "طفلي المسكينة شنقت! لا، لا، لا! ابنتي كورديليا! لماذا يكون للكلب والحصان والفأر حياة وأنت بلا نفس على الإطلاق؟ ألن تعود مرة أخرى؟"

احمر وجهه وبدا وكأنه يختنق. فوضع كورديليا على الأرض وطلب من كينت أن يساعده في فك الزر في ياقته.

ابتسم له لير وقال: "شكراً لك سيدي."

ثم نظر إلى كورديليا مرة أخرى وقال: "انظر إليها. هل ترى فيها حياة؟ انظر إلى شفتيها، هل تتنفس؟ انظر، انظر!" ثم أخذ نفسا عميقا وسقط على جسد كورديليا.

صاح إدجار: "لقد أغمي عليه!". فجري إليه يهزه وهو يقول: "مولاي، مولاي!"

وضع كينت يده على كتف إدجار وقال: "لقد انكسر قلبه. لا تزعج روحه الراحلة. دعه يمر في سلام. لقد عاش أطول مما ينبغي، والعجيب أنه تحمل كل هذه المعاناة في هذا السن الكبير، لكنه مات ملكاً، كما عاش ملكاً."

حمل الضباط جثة لير وكورديليا وتبعهم إدجار وكينت وباقي الضباط في موكب حزين.